مصطفى كامل
عاشق مصر

سيرة قصصية

تأليف

محمد السيد عيد

الفصل الأول

البدايات

في رعاية على مبارك

(١)

اقترب موكب الخديو من مكان الاحتفال في جلال ومهابة .. أمام الباب استعد الحرس الذين اصطفوا منذ الصباح الباكر ليكونوا في استقبال ولي النعم . لم تلبث العربة الخديوية أن توقفت ونزل منها محمد توفيق باشا والي مصر . نادى قائد الحرس بصوت جهوري :سلام ولي النعم جناب محمد توفيق باشا خديو مصر..

فعزفت الموسيقى ، وأدى الجنود التحية ، وتقدم الخديو مسرعاً يصعد السلم وهو يرد التحية بيمناه .

أعلى السلم كان على باشا مبارك ، ناظر(١) المعارف ، يقف في استقباله . انحنى محييا وهو يقول :

- نظارة المعارف(٢) تشرفت بحضورك يا ولي النعم .
- هل من المعقول يا باشا ألا أحضر تخريج دفعة جديدة من المدرسة الابتدائية ؟
- أدامك الله ذخراً للتعليم والتقدم يا أفندينا .

وسار على باشا مبارك إلى جوار جناب الخديو يقود خطاه نحو القاعة التي يجلس فيها الطلبة ، وأولياء الأمور، وكبار رجال الدولة.

كان الجميع سعداء بالحفل ، لكن أهم فقرة جذبت الأنظار كانت الكلمة التي ألقاها التلميذ مصطفى كامل دون أن ينظر في ورقة ، ودون أن يتردد في جملة ، أو يخطئ في إعراب كلمة .

كان التلميذ الصغير نحيفا حقا ، إلا أن عينيه تشعان ذكاءً ، ويبدو واثقاً بنفسه ، لذلك فما إن انتهت كلمته حتى ضجت القاعة بالتصفيق .

بعد نزول مصطفى كامل اتجه إلى حيث يجلس خديو البلاد وناظر المعارف للتحية .. وخلف مصطفى كان ضابط المدرسة يسير بخطوات عسكرية ، وعلى وجهه علامات الجدية والصرامة .

سأل الخديو مصطفى : ما اسمك ؟

أجـــابــــــــــــــه : مصطفى كامل .

همس الضابط لمصطفى بصوت خفيض : قل عبد سموكم مصطفى كامل .

لم يلتفت له ، وواصل الخديو السؤال : واسم أبيك ؟

- علي أفندي محمد .

همس الضابط للمرة الثانية : قل عبد سموكم علي أفندي محمد .

لاحظ علي باشا مبارك ناظر المعارف اعتداد الطالب الصغير بنفسه فابتسم إعجاباً لمعاندته للضابط ، وراح يتابع بقية الحوار.

- وماذا يعمل أبوك ؟
- كان ضابطاً مهندساً ، لكنه توفى
- رحمة الله عليه

وتطوع علي باشا مبارك بأن يقول للخديو : والده كان أستاذاً لي في مدرسة المهندسخانة يا ولي النعم .

هز الخديو رأسه إعجاباً وهو يقول لعلي باشا : - النباهة إذن وراثة في هذه الأسرة .

- فعلا يا أفندينا .

وسأل الخديو الطفل سؤلاً أخيراً : ما ترتيبك في النجاح يا مصطفى ؟

فأجابه بثقة : الأول.

- عفارم ولدنا مصطفى كامل .. عفارم .

ومد مصطفى يده للخديو فصافحه ، وسار مشدود القامة إلى المكان المخصص له وخلفه الضابط .

حين جلس سأله الضابط في غيظ : - لماذا لم تقل للخديو " عبد سموكم " كما قلت لك ؟!

وأجاب مصطفى باعتداد : " لماذا تريدني أن أصف أبي وأصف نفسي بأننا عبدا الخديو ؟ لست أنا وليس أبي عبيداً لأحد . ولو قلت غير هذا لكنت كاذباً ".

---

(١) الناظر بلغة عصر مصطفى كامل هو الوزير الآن .

(٢) نظارة المعارف: وزارة التربية والتعليم.

نظر الضابط في غيظ لمصطفى ، ثم انصرف ليواصل عمله ، وجلس مصطفى مرفوع الرأس ، يتابع فقرات الحفل .

منذ هذا اليوم انتبه علي باشا مبارك للتلميذ الصغير ، أحس أنه سيكون شيئاً لامعاً ذات يوم ، وراح يتابعه من بعد.

(٢)

بعد المدرسة الابتدائية التحق مصطفى كامل بالمدرسة التجهيزية ، وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وفوجئ هو وزملاؤه بأن نظام الامتحان تم تعديله بحيث لا يعد ناجحا إلا من يحصل على ست عشرة درجة من عشرين ، وترتب على هذا أن رسب كل التلاميذ عدا تلميذين .

ساد التذمر بين التلاميذ . وقفوا في فناء المدرسة يناقشون الأمر . أجمعوا على أن نظام الامتحان الجديد ظالم . وحينئذٍ قال مصطفى كامل لزملائه : لماذا نرضى بالظلم ؟

قال أحد الزملاء : وماذا بوسعنا أن نفعل ؟

: بوسعنا أن نفعل الكثير . أنا شخصياً سأذهب إلى ناظر المعارف ، وأطلب منه رفع الظلم .

تعالت الأصوات : ناظر المعارف مرة واحدة ؟

- **هل سيسمح لك بذلك ؟**
- **ربما نالك منه أذى .**

قال مصطفى : - يجب أن تكون لدينا الشجاعة للمطالبة بحقوقنا .

توجه التلميذ الصغير ، النحيف ، ابن الثلاثة عشر عاما إلى مبنى نظارة المعارف ، طلب مقابلة الناظر . نظر الموظفون إلى الطفل متعجبين . تبادلوا النظرات فيما بينهم . قال له أحدهم :

- **ممنوع .. التلاميذ لا يقابلون الباشا ناظر المعارف .**

قال مصطفى بثقة : - كيف تمنعني من مقابلة الناظر وأنا أحد أبنائه ؟

حين سمع الموظفون الرد تغير الموقف : - ابن سعادة الباشا ؟!! آسفين يا افندم . لحظة واحدة .

بعد لحظة كان مصطفى يقف أمام الباشا الذي عرفه على الفور . ضحك وهو يسأله :

- **كيف تقول للعاملين بمكتبي أنك أحد أبنائي ؟**
- **يا سعادة الباشا حضرتك ناظر المعارف ، وكل التلاميذ أبناؤك . وأنا لم أكذب .**
- **صدقت . وماذا يريد ولدي مصطفى كامل من أبيه على مبارك ؟**
- **أريد أن أشكو من نظام الامتحان الذي يتسبب في رسوب معظم التلاميذ . هذا النظام لابد أن يتغير .**
- **هب أني لم أستمع إلى شكواك ، فماذا أنت صانع ؟**
- **إنني وزملائي نفزع إلى عدلك يا سعادة الباشا من الظلم الواقع علينا .**

أحس الباشا بأن هذا التلميذ ليس مجرد تلميذ شجاع ، ورأى ببصيرته النافذة أنه مشروع زعيم ، يستطيع أن يواجه الخصوم ، ويعرض قضيته بجرأة ، وأخفى ابتسامة سرور وهو يطيل الحوار معه ليعرف كيف يتصرف في المواقف الحرجة . قال الباشا :

- **دعك من الاستعاذة بالعدل الذي أعزه من الجور الذي أكرهه ، فربما كان للقرار الذي تشكو منه حكمة تخفى عليك وعلى زملائك ، واقتضت مشيئتي ألا أعدل عنه ، فماذا يكون منك ؟**
- **في هذه الحالة سأعود إلى زملائي ، وأقول لهم إني عرضت مظلمتكم ، ورجوت سعادة الباشا ناظر المعارف ، لكنه لعلة لا أعرفها رفض شكواكم وأصر على قراره .**

نهض الباشا الناظر من مقعده . سار حتى مصطفى . ربَّت على كتفه بإعجاب وهو يقول :

- **اذهب إلي زملائك وبشرهم بأن القرار الذي يشكون منه قد أُلغي .**

نزل خبر إلغاء القرار الظالم على التلاميذ برداً وسلاماً . وأحسوا أن مصطفى زعيم بحق ، وانه يستطيع أن يفعل ما لا يستطيعون ، وعلت مكانة مصطفى إلى عنان السماء .

(٣)

كان مصطفى كامل حريصاً على كرامته ، لذا كان حريصاً على ألا يفعل شيئاً يتسبب في أن يجرح أي إنسان كرامته ، وبعد تفكير عميق تبين أنه لو أراد أن يحافظ على هذه الكرامة ، فلابد له من أمرين :
أولاً : أن يؤدي واجبه على أكمل وجه .
ثانياً : ألا يتصرف بشكل غير لائق في أي موقف .
وعرف زملاؤه عنه هذا الطبع ، واعتبروه سمة من سمات الزعامة ، واجتهد كل منهم في مساعدته على الاحتفاظ بكرامته مصونة لا تمس ، لذلك كان للواقعة التي حدثت ذات يوم أثر يفوق التصور .
كان طابور الصباح يقف منتظماً ، الجميع يقفون وقفة شبه عسكرية ، وضابط المدرسة ينادي على الجميع : " صفا .. انتباه .. المشي في المحل ، محلك سر " ، ووسط هذا الجو حلا لبعض التلاميذ أن يمزحوا ، وزاد أحدهم في المزاح مع صديقه ، ونغزه في وسطه بقوة ، فما كان من الصديق إلا أن سبه بصوت مرتفع .
رن الصوت رنيناً وسط طابور الصباح . لم يستطع الضابط أن يحدد صاحب الصوت بدقة ، وحتى لا تضيع هيبته التفت نحو أقرب تلميذ إليه ، وقال له :
- أنت الذي تكلمت ؟
لم يكن هذا التلميذ سوى مصطفى كامل الذي بوغت بالاتهام . قال له :
- أقسم إني لم أتكلم ، وأنا لا أشتم زملائي بمثل هذه الألفاظ أبداً .
وعلا صوت الضابط : كاذب .
وهوي بعصاً كانت في يده على ذراع صاحبنا بلا رحمة . صرخ الفتى من الألم . لكن الضابط لم يهتز ، وأكمل العقاب بسيل من الألفاظ غير اللائقة . بهت مصطفى ، لم يصدق أن يسبه أحد وهو الذي يحمّل نفسه ما لا يطيق حفاظاً على كرامته ، وحين انصرف الضابط ليكمل الطابور خرج مصطفى من الصف ، سار أمام الجميع متجهاً إلى الباب وخرج إلى الطريق . لم يهتم الضابط وأكمل الطابور .
قصد التلميذ المجروح في كرامته إلى مبنى نظارة المعارف . سأل عن الباشا الناظر . أبلغوه أنه لم يصل بعد . سار وفي عينيه تصميم وعناد إلى بيت الباشا . لم يكن بيته يبعد كثيراً عن بيت الأسرة ، وطالما مر مصطفى أمامه ، ورأى الباشا يركب عربته أو ينزل منها .
قال علي باشا مبارك ، ناظر المعارف المعجب بالتلميذ الشجاع : مالك يا مصطفى ؟
وحكى مصطفى القصة كاملة للباشا ، الذي صمت برهة ، ثم رفع رأسه ، وربَّت على ظهر تلميذه وقال له : تعال معي .
ركب الباشا عربته ، وأمر سائقه بأن يتوجه إلى المدرسة ، وعند باب المدرسة نزل هو وتلميذه ، وتعمد أن يضع ذراعه في ذراع التلميذ ، وتوجه مباشرة إلى مكتب ناظر المدرسة وطلب منه جمع التلاميذ في أرض الطابور .
وقف التلاميذ كأن على رؤوسهم الطير من هيبة ناظر المعارف ، الذي سار إلى حيث كان يقف مصطفى وقت حدوث المشكلة ، سأل التلاميذ عما حدث ، رووا القصة بكل تفاصيلها ، تأكد الباشا من براءة مصطفى ، من خطأ الضابط . سار إلى حيث يراه الجميع . نادى الضابط الذي أقبل بالخطوة السريعة . وضرب الأرض بقدمه وهو يرفع يمناه بالتحية قائلاً : تمام يا افندم .
عندئذٍ قال علي باشا مبارك يخاطب ناظر المدرسة بصوت يسمعه الجميع :
- اليوم سيصدر قرار بفصل هذا الضابط ، لأنه مندفع ، وهذا الاندفاع ليس سمة المربين ، والاعتداء على التلاميذ بالضرب والسب المهين بغير تثبُّت(١) يعلم الأولاد قبول الظلم ، وردَّه على من هو أضعف منهم .
خفض الضابط نظره نحو الأرض . سالت من عينه دمعة . تماسك . اقترب ناظر المدرسة من الباشا ناظر المعارف ، قال له في توسل :

---

(١) تأكد

- سعادة الباشا ، أرجوك ، هذا الضابط طوال عمره مثال للانضباط ، هذه هى المرة الأولى التي يخطئ فيها ، وكان دائماً هو المسئول الأول عن الانضباط والنظام في المدرسة . أرجوك ، لا داعي لأن نفصله عند أول خطأ له . لنعطه فرصة .

قال الباشا :

- وكرامة هذا التلميذ ، أليس لها اعتبار ؟
- سيعتذر له أمام التلاميذ جميعاً .

نظر الباشا لمصطفى قائلاً :

- ما رأيك يا مصطفى ؟ هل تقبل اعتذاره ؟

أحس مصطفى أنه صاحب الكلمة العليا ، وأن مصير خصمه صار معلقاً بكلمة منه ، وأنه داوى كرامته الجريحة أمام زملائه ، وتذكر الدرس الذى علمه لهم أستاذ الدين بعنوان " العفو عند المقدرة " قال لهم الشيخ : " إن الحسين بن علي كان يريد أن يتوضأ ، فيطلب من إحدى جواريه أن تحضر له ماءً دافئاً للوضوء ، إلا أن الجارية أحضرت ماءً شديد السخونة ، حتى كادت تسلخ به جلد الحسين - رضي الله عنه - وحين نظر إليها غاضباً سائلاً : ما هذا ؟

قالت : - والكاظمين الغيظ .

تمالك الحسين - رضى الله عنه - نفسه ، وقال : كظمت غيظي .

واصلت : والعافين عن الناس .

قـــال : عفوت عنك .

أكملت : والله يحب المحسنين .

قـــال : إذهبي فأنت حرة لوجه الله .

مرت القصة بخيال مصطفى كلمح البصر ، ذكرته بالعفو عند المقدرة ، لذا لم يتردد في الإجابة عن سؤال الباشا وقال : - " لقد قبلت اعتذاره يا سعادة الباشا ".

في هذه اللحظة علا صوت : " عاش مصطفى كامل " ودوَّى الفناء بالتصفيق .

(٤)

توطدت العلاقة بين الطفل الجريء الشجاع منذ هذا اليوم وبين الباشا ناظر المعارف الجليل . كان الباشا يفتح أبواب قصره بعد الظهر للأدباء والعلماء والفنانين ، وعلم فتانا بهذا فكان كلما وجد فرصة توجَّه إلى قصر الباشا ليستمع إلى وجوه الأمة ، وينهل من علمهم ، وربما ناقش الباشا في قضية ، والباشا لا يضيق به ويقابل جرأته بالابتسام ، ويقول لنفسه : " هذا الفتى سيكون زعيماً ، ومما سيحسبه لي التاريخ أني ساهمت في رعاية وصنع هذا الزعيم " .

كتب الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد يصف علاقة التلميذ الصغير بالباشا الناظر فقال :

> " دخلت ذات ليلة على علي مبارك باشا في منزله ، في أوائل سنة ١٨٩٠ ، وهو يومئذٍ ناظر المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وإذا بمصطفى كامل ، وكان يومئذٍ تلميذاً بالمدرسة الثانوية ، يجادل الباشا في أمر ، ويقول : " إنني لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذاً مثلي ! وما يدريك ألا أكون عظيماً أخدم وطني غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ؟ " وبعد ما خرج ابتسم الباشا وقال : إنني أعجب كثيراً بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لي أن يتكلم أمامي بمثل هذه الشجاعة النفسية "

هكذا كانت بدايات الفتى الذي صار زعيماً .

الفصل الثاني

محاولات أدبية
مبكرة

(١)

صباح جميل . الخضرة تملأ حديقة المدرسة . العصافير تزقزق على الأشجار . والجو تهب فيه نسمات طرية منعشة . وقف المدرس أمام التلاميذ جاداً . أمسك بقطعة الطباشير . كتب على السبورة بخط جميل " إنشاء " ثم استدار لتلاميذه قائلاً : اليوم يا أبنائي موعد حصة الإنشاء ، وقد اخترت لكم موضوع .....

قبل أن يكمل دخل عليه الفصل ناظر المدرسة ، وخلفه الباشا ناظر المعارف (علي مبارك) ، وكبار رجال التعليم . لم يكمل المدرس جملته .

صاح ناظر المدرسة في التلاميذ : قيام .

قاموا جميعاً لتحية ناظر المعارف وكبار الضيوف ، صاح ناظر المدرسة : تعظيم سلام . رفعوا أيديهم بالتحية ، ورد علي باشا مبارك التحية بأجمل منها . واصل ناظر المدرسة النداء : " إرسال " فخفض التلاميذ أيديهم ، وأخيراً قال : " جلوس " فعاد الأولاد إلى أماكنهم .

حين رأى مصطفى كامل صديقه ناظر المعارف التمعت عيناه بالفرح . نظر علي باشا مبارك إلى السبورة . قرأ ما هو مكتوب عليها . قال :

- هذه إذن حصة إنشاء ، عظيم ، ما الموضوع الذي ستكتبون عنه ؟

انبرى المدرس : ـ لم نختر الموضوع بعد .

- هل تسمحون لي باختياره ؟
- هذا شرف لنا يا سعادة الباشا.
- ليكن الموضوع هذه المرة حول : ماذا نصنع بعد أن ننتهي من الدراسة الثانوية ؟

ونظر الباشا للتلاميذ سائلاً : من الذي سيحدثنا في هذا الموضوع ؟

تدخل المدرس مشيراً إلى مصطفى كامل : انهض يا مصطفى .

سأل الباشا : ـ ولماذا مصطفى بالذات ؟

- لأنه حاضر البديهة ، يمكنه أن يرتجل دون تردد ، ويتحدث فوراً في أى موضوع .
- عظيم ، لنسمع مصطفى إذن .

وقف الفتى النحيل معتداً بنفسه ، بثقافته ، وبدأ الكلام ، ولم يلبث الكلام أن تدفق شلالاً ، وخلال التدفق استشهد التلميذ بالقرآن ، والأحاديث النبوية ، والأشعار ، حتى بهر كل الواقفين . وحين انتهى انطلقت الأكف بالتصفيق إعجاباً وتقديراً ، وسار الباشا إلى مصطفى وهو يقول له :

- " بسم الله ما شاء الله . فصاحة مدهشة ، وبلاغة جميلة . إنك امرؤ القيس ".

أحس مصطفى بالسعادة لكلمات الباشا ، والتقط التلاميذ وصف الباشا لزميلهم بأنه " امرؤ القيس " ، وراحوا ينادونه بهذا اللقب في كل حين .

منذ هذا اليوم أدرك مصطفى أن الأدب هو وسيلته للتفوق وجذب الأنظار والأسماع إليه ، وبدأ يحلم بنفسه شاعراً كبيراً ، وكاتباً شهيراً مثل امرئ القيس . إيه يا فتى .. لتسع إذا كنت جاداً لتحقيق الحلم ، فالأحلام لا تتحقق إلا بالعمل ، العمل الجاد .

(٢)

لم يكن مصطفى كامل هو التلميذ الوحيد المهتم بالأدب والشعر . كان عدد من أصدقائه يشاركونه الهواية نفسها ، وخطرت بباله فكرة : " لماذا لا يكون هو وأصدقاؤه جمعية أدبية تجمعهم ، وتتيح لهم الفرصة للحديث حول الشيء الذي يحبونه ، وتبادل الخبرات ، والمنافسة أيضاً ؟ "
فاتح صاحبنا زملاءه في الأمر فوجد منهم ترحيباً وحماساً . أحضر كراساً وكتب أسماء المرحبين بالفكرة ، وبدأوا يجتمعون في أوقات فراغهم ، وأيام إجازاتهم . وسأل واحد من الحاضرين مصطفى :

- ألا نبحث لجمعيتنا عن اسم ؟
- هذا شيء طبيعي .
- ماذا نسميها إذن ؟
- لنبحث معاً .

بحثوا . اقترحوا الأسماء . ناقشوا كل اسم ، وأخيراً اتفقوا على أن يسموها باسم الحى الذي يسكنه مصطفى كامل ويجعل منه مقراً لجمعيته : حي الصليبة .. وهكذا صار اسم الجمعية " جمعية الصليبة " .
ولم يكتف صاحبنا بنشاطه واحتكاكه مع أدباء جمعية الصليبة ، بل راح يتردد على أي تجمع أدبي يسمع عنه ، وقد رأينا كيف كان يشارك في صالون على باشا مبارك ناظر المعارف ، ومن المؤكد أنه تردد أيضاً على جمعية أدبية أخرى تسمى " جمعية الاعتدال " كانت تعقد جلساتها الأسبوعية في مدرسة الأمريكان .
لقد كان متعطشاً لمعرفة فنون الأدب ، وأسراره ، والأدب لا يبخل على من يعطيه عمره .

(٣)

منذ فترة مبكرة بدأت علاقة مصطفى بالشعر ، والشعر فن مركب ، يتطلب من الشاعر أن يعرف الكثير ، فلكي تكون شاعراً يجب أن تعرف اللغة .
ويجب أن تعرف العروض أو أوزان الشعر .
ويجب أن تعرف البيان ، والبديع .
ويجب أن تعرف البلاغة .
وإلى جانب هذا يجب أن تكون لديك ثقافة عامة تسمح لك باختيار الموضوعات ، والزوايا التي تتناول منها الموضوعات ، ويجب أيضاً أن يكون لك موقف ، أو قضية تؤمن بها ، وتعبر عنها ، وهذا الموقف لا يتكون إلا من خلال ثقافة واطلاع وتأمل .
حاول مصطفى أن يعرف هذا كله ، وساعده في ذلك العلوم التي يدرسها ، مثل قواعد اللغة العربية ، والنصوص الأدبية ، وتاريخ الأدب . لكن الكتب المقررة لم تكن كافية ، لذلك لجأ أديبنا الصغير إلى مكتبة المدرسة ، وتبادل الكتب مع أصدقائه هواة الأدب ، ومكتبة أخيه حسين واصف ، وأهم من هذا كله الكتبخانة " دار الكتب " ، فالمسافة بين بيته في الصليبة والكتبخانة الكائنة بباب الخلق لا تزيد عن دقائق . لهذا كان مصطفى يقضي وقتاً غير قصير فيها .
وبدأت أشعار مصطفى تتوالى ، يدفعها حلمه بأن يكون امرأ القيس . لكن هل يكفيه الشعر ؟
إن مصطفى عاشق للصحافة ، والصحافة لغتها النثر ، لذلك كان لابد لمصطفى أن يتعامل مع أحد الأشكال النثرية الضرورية للصحفي ، وهو المقال .
وفى سن مبكرة أيضاً ، وبالتحديد في عام ١٨٩٤ رأى مصطفى أن يجرب شكلاً أدبياً جديداً ، وهو الكتابة المسرحية ، فكتب بعد حصوله على الليسانس من باريس مسرحية بعنوان " فتح الأندلس " .

لم يكن الأدب العربي في ذاك الحين يعرف التأليف المسرحي إلا في أضيق الحدود ، وكان المسرح نباتاً وافداً من أوروبا يتم استنباته ببطءٍ شديد ، ولذا تعتبر مسرحية فتح الأندلس واحدة من الأعمال الرائدة في تاريخ مسرحنا .
إن هذه الملامح الأدبية المبكرة تؤكد لنا أن مصطفى كامل لو لم يكن زعيماً لكان أديباً .
ومن المؤكد أن الأديب أثر في الزعيم ، كما أن الزعيم أثر في الأديب .
الأدب هو الذي أعطى الزعيم القدرة على الخطابة البليغة المؤثرة ..
والزعامة هى التى حددت الموضوعات التى تناولها مصطفى كامل ، وطريقة تناوله لهذه الموضوعات .
لذا يحق لنا أن نصف مصطفى كامل بأنه الأديب الزعيم ، أو الزعيم الأديب.

الفصل الثالث

الحقوق

(١)

كانت نفس مصطفى كامل معلقة بالحقوق ، ولم تكن كلية الحقوق قد وجدت ، لأن الجامعة لم تبدأ في مصر إلا بعد وفاة صاحبنا .
كانت في مصر مدرستان للحقوق ، الأولى عربية ، وتسمى تجاوزاً بالحقوق الخديوية ، وتسمى رسمياً بمدرسة الإدارة والترجمة . أما الثانية فتسمى الحقوق الفرنسية ، وهى فرع من جامعة باريس ، يقوم بتدريس المواد المقررة للطلبة المصريين في مصر ، لكن الامتحان يتم في فرنسا .
وقد اختار مصطفى مدرسة الحقوق الخديوية .
أثناء الدراسة تعرف مصطفى على زميل له صار من أصدقاء العمر ، اسمه فؤاد لطيف سليم ، كان يجاوره في السكن ، لذا كانا يذهبان إلى المدرسة سوياً ويعودان سوياً . إلا أن فؤاداً لم يكن يتقن اللغة العربية ، وبالتالي لم يكن متمكناً في بعض المواد مثل الفقه الإسلامي والشريعة ، لذلك قرر أن يترك الحقوق الخديوية إلى الحقوق الفرنسية ، واستطاع بعد قليل أن يقنع مصطفى كامل بالالتحاق بها معه .
كان مصطفى ضعيفاً في اللغة الفرنسية ، إلا أنه رغم هذا التحق بالحقوق الفرنسية ، وقرر أن يتحدى نفسه ، وبالفعل أتقن الفرنسية كأنه عاش وتربى في فرنسا ، وكان يخطب ويكتب بها . المهم أن صاحبنا لم يترك الحقوق الخديوية مثل صاحبه ، بل جمع بين المدرستين .
كانت مدرسة الحقوق الخديوية تعمل صباحاً ، والفرنسية تعمل مساءً ، ولذا تمكن الفتى العنيد من حضور دروس المدرستين . غير أن هذا الجهد المضني هد صحته ، وزاده نحافة على نحافته ، وجعله أكثر عرضة للمرض .
دخل مصطفى مدرسة الحقوق عام ١٨٩١ ، وبعد فترة وجيزة وقعت أحداث مهمة ، فقد رحل الخديو محمد توفيق عن الدنيا في يناير ١٨٩٢ . لم يكن توفيق محبوباً من الناس ، فهو الذي أتى بالإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ ، وهو الذى عاش في حمايتهم وطاعتهم . وحين رحل صار العرش من نصيب ولده عباس حلمي الثاني . وعباس هذا في سن مصطفى كامل ، وحين تولى العرش ووجد السيطرة الإنجليزية على كل شيء قرر المواجهة وتحدى سلطات الاحتلال .
قام الخديو الراحل ، إرضاءً للمحتلين بتعيين رجل عرف بميوله الإنجليزية القوية ، وهو مصطفى باشا فهمي على رأس النظارة ، ورأى الخديو الشاب أن يطيح برئيس النظار العميل ، ودون تردد أصدر قراره بإقالة مصطفى فهمي ومن معه من النظار ، وعين رئيس نظار جديد لا يحب الإنجليز ولا يحبونه ، وهو حسين باشا فخري .
أحس المندوب السامي الإنجليزي أنه لو لم يقابل هذا الخديو بحزم فإنه سيضيِّع كرامة الإنجليز في مصر ، لذا تمسك بإسقاط نظارة حسين فخري وعودة مصطفى فهمي ، وبعد مفاوضات ومحاولات للإصلاح والتهدئة بين الرجلين تم الاتفاق على حل وسط ، وهو إسقاط نظارة فخري باشا ، وتعيين رئيس نظار آخر غيره وغير مصطفى فهمي ، وتم الاتفاق على رياض باشا ليتولى المنصب .
أحس كل الوطنيين في مصر بوضع الخديو الشاب الرافض للاحتلال ، وأحس مصطفى كامل وزملاؤه بأنهم لابد أن يلعبوا دوراً لمؤازرة حاكمهم ، فأعلنوا الإضراب عن الدراسة .
ولم يكتف مصطفى بالإضراب، بل دعا زملاءه للتظاهر لتأييد الخديو وإعلان الرفض لممارسات الإنجليز ، وبالفعل خرج الشباب ، وقد حملوا صاحبهم على أكتافهم ليقودهم في التعبير عن موقف الأمة.
وربما لا يستطيع القارئ المعاصر معرفة معنى قيام مظاهرة سنة ١٨٩٢ ، لكن لتوضيح هذا نقول إن مصر في العصر الحديث لم تعرف المظاهرات قبل مظاهرة مصطفى كامل ومدرسة الحقوق ، ونقول إن هذه مظاهرة تاريخية عرَّفت المصريين شكلاً جديداً من أشكال الاحتجاج ، وإن مصطفى كامل هو أبو المتظاهرين في مصر .

سار المتظاهرون إلى جريدة المقطم لسان حال الإنجليز في مصر ، هتفوا ضدها ، وألقى مصطفى كامل خطبة عصماء ، تعتبر أولى خطبه السياسية ، وتأكدت من هذا اليوم زعامته للطلاب .
أعجب الخديو عباس حلمي الثاني بهذه المدرسة الجريئة التي أيدته ، وقرر زيارتها ، وخلال الزيارة وقف مصطفى خطيباً ، وأشاد بالخديو الوطني ، بالباشا الغيور على بلاده ، ومما قاله في هذه الخطبة:
بشرى الحقوق بسيد الأمراء   كنز العلا عباس ذو النعماء .
بشراك يا دار العدالة والهدى   بمليك مصر وأوحد العظماء .
أعجب الخديو بالخطيب المفوه ، ودعاه إلى قصره ، وبدأت علاقة بين الشابين .

(٢)

حدث في هذه الفترة حادث أثر في فتانا تأثيراً عظيماً ، فقد عفا الخديو عباس عن خطيب الثورة العرابية " عبد الله النديم " الذي حُكم عليه بالنفي بعد فشل الثورة ، واختفى حيناً ، ثم ظهر ونفذ فيه حكم النفي . وها هو بعد سنوات المنفى يسمح له بالعودة .
نزل النديم ضيفاً على لطيف بك سليم ، والد فؤاد سليم صديق مصطفى ، وقابل مصطفى الشيخَ، وأسلمه نفسه المتعطشة للثورة ليغرس فيها ما شاء من بذور ، ويرعاها .
تحدث الشيخ مع مصطفى ورفاقه من الشباب عن عرابي ، ومظاهرته ضد الخديو توفيق ، ورفضه للاحتلال الإنجليزي ، ومقاومته للغزاة . روى لهم قصة الخيانة ، واتفاق ديليسبس مع الإنجليز ، وكيف فتح لهم القناة ، بعد أن وعد عرابي بعدم السماح لهم بالمرور فيها ، وكيف هاجموا عرابي من حيث لا يتوقع . حدث الشباب المتعطش عن محاكمة الإنجليز لزعماء الجيش وأنصارهم ممن رفضوا احتلال بلادهم ، وكيف شتتوهم في البلاد .
تكلم النديم مع مريديه من الشباب عن هروبه من تنفيذ الحكم الصادر ضده ، وكيف ساعده الأهالي حتى لا يكتشف الإنجليز أمره ، حتى طمع ذات يوم رجل ضعيف النفس ، في المكافأة التي رصدتها الحكومة لمن يدلها على النديم ، فوشي به .
فرت الدموع من عيني النديم وهو يتذكر قاسم أمين رئيس النيابة الذي حقق معه ، لقد وقف هذا الرجل مواقف رائعة ، إذ منع أيدي الشرطة أن تمتد إليه بالإهانة ، وأوجد له غرفة نظيفة مؤثثة لتكون مكاناً لحبسه خلال فترة التحقيق ، وزود الغرفة بالإضاءة ، ووفر له سبل الراحة بصورة لم يعرفها معارض سياسي من قبل . ولم يكتف قاسم أمين بهذا ، بل توجه إلى القاهرة ، وبذل الجهود والمساعي حتى تمكن من الوصول إلى أفضل حل ممكن لمشكلة النديم ، إذ وافق المسئولون عن الإفراج عن النديم مع نفيه إلى الشام ، ومنحه مئة وخمسين جنيهاً .
استمع مصطفى كامل للأستاذ جيداً ، ووجد أن الأستاذ يستخدم وسيلتين لمخاطبة الجماهير : الخطابة ، والصحافة . صحيح أن النديم لم يكن في وضع يسمح له بالخطابة ، لكنه كان خطيب الثورة ، وهو الذي أشعل عواطف الناس بكلماته النارية ، وحشدهم خلف عرابي وجيشه ، وعبأهم ضد الإنجليز .
لم يعد أمام الأستاذ سوى الصحافة ، لذا قرر أن ينشئ صحيفة يقاوم بها الإنجليز ، ولأن الإنجليز لن يمنحوه الرخصة لو طلبها باسمه ، فقد جعل أخاه هو الذي يطلبها ، ووافق الإنجليز ، وبدأت المجلة في الصدور في أغسطس ١٨٩٢ ، أي بعد فترة وجيزة جداً من عودته لمصر .
كان النديم يعرف أن الشعب المصري خفيف الدم ، يحب النكتة ، لذا جمع في مجلته بين خفة الدم والجدية ، كما جمع بين النثر والزجل ، وتمكن بمجلته من إقلاق رجال الإمبراطورية البريطانية .
وقرر مصطفى كامل أن ينشئ مجلة مثل النديم ، وبالفعل أصدر مجلة " المدرسة " وجعل شعارها :
" حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك ".
وكتب عليها :
" مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية ".

واعترف بأنه يريد لمجلته أن تجمع درر وفرائد الأستاذ ، ولم يتردد في إهداء المجلة المدرسية المتواضعة للنديم ، الذي كتب عنها تشجيعاً لمصطفى كامل .
وقد قارن الدكتور عبد العظيم رمضان ، أستاذ التاريخ الحديث ، بين مجلة المدرسة ومجلة الأستاذ وكتب يوضح أثر النديم في مصطفى كامل قائلاً :

" اتبع مصطفى كامل في مجلة " المدرسة " نفس أسلوب عبد الله النديم ، وهو أسلوب المحاورات . فكما كتب عبد الله النديم في أول أعداد " الأستاذ " حواراً بين النديم وشخص يسمى حبيب ، عن فضل اللغة العربية وأهميتها ، كذلك كتب مصطفى كامل في مجلة " المدرسة " محاورة بين الأستاذ والتلميذ ، محاورة بين صديقين وهكذا .

وكما كتب النديم عن أهمية تعليم أبناء الشعب ، وضرورة تعميم التعليم ، كذلك كتب مصطفى كامل عن أهمية تعميم التعليم بقوله : إن تعميم التعليم من أهم الأسباب الداعية لنمو العمران.

كذلك حين كتب عبد الله النديم يدافع عن الفلاح المصري ، ويصفه بالذكاء والنباهة ، فعل مصطفى كامل المثل ، فروي قصة مبالغاً فيها عن تلميذ يبلغ من العمر عشر سنوات قادم من الصعيد ، استطاع أن يحل مسألة رياضية عجز مصطفى كامل وزملاؤه عن حلها ! ، مما دعا أكبرهم إلى مخاطبة الفلاح قائلاً : أيها الفلاح أنت مثلنا متمدين " .

من هذه المقارنة نتبين أن مصطفى كامل تأثر بآراء النديم الإصلاحية ، كما تبين أهمية الصحافة لمخاطبة الشعب ، لكن النديم - بكل أسف – لم يبق في مصر طويلاً ، فقد أزعجت كلماته سلطات الاحتلال ، فأوقفت المجلة في يونيو ١٨٩٣ ، ثم ضغطت لنفي النديم مرة أخرى ، وإن كان النفي تم بصورة إنسانية ، حيث أعطي أربعمائة جنيه مصري وهو مبلغ هائل في هذه الأيام ، كما تقرر له معاش شهري قدره خمسة وعشرون جنيهاً .
وبنفي النديم فقد مصطفى كامل أستاذاً عظيماً ، لكن القدر كان يهيئ له شيئاً آخر أفاده إفادة جليلة، وهو: الرحلة إلى فرنسا .

(٣)

فرنسا في ذاك الزمن كانت قبلة الراغبين في العلم والمعرفة . ذهب إليها كل عظماء مصر ومفكريها ليعرفوا العلوم الحديثة ، والقيم الأوروبية التي تنقص المجتمع المصري ، مثل :

- حق الفرد في التعبير عن رأيه ، دون المساس به ، مهما كان الرأي معارضاً للحكومة ، أو للقيم السائدة في المجتمع .
- الديمقراطية ، أي حكم الشعب لنفسه بنفسه ، بدلاً من جمع السلطات في يد حاكم فرد كما هو سائد في الشرق .
- مساواة المرأة للرجل ، وحقها في التعليم والعمل .
- أهمية العقل في النظر لقضايا الدين والمجتمع والسياسة .

من خلال معرفة المصريين لهذه القيم بدأ التغيير والتحديث في المجتمع المصري ، وصار المنادون بالتغيير والتحديث زعماء مصر ومفكريها . ولا ننسى أبداً هؤلاء الرجال أمثال رفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك (أبو التعليم) ، والخديو إسماعيل ، وشريف باشا (أبو الدستور) ، ومحمد عبده رائد الفكر المصري الحديث .
على طريق هؤلاء ذهب مصطفى كامل إلى فرنسا ، وكانت أولى سفراته في يونيو ١٨٩٣ ، أي في توقيت خروج النديم من مصر .
قبل السفر إلى فرنسا لم ينس مصطفى الذهاب إلى أستاذه وراعيه : علي مبارك . كان الرجل قد صار في السبعين من عمره ، وترك المناصب والوظائف الرفيعة بإرادته ، وتفرغ للكتابة والتأليف . حين علم أن مصطفى متجه إلى باريس تهلل وجهه . دب فيه حماس جعله يتحدث كأنه في العشرين : فرنسا ليست مجرد مدارس ومعاهد .. فرنسا حياة . لابد أن تنتهز الفرصة وتذهب للمسرح ، للأوبرا

، لمعارض الرسامين . لابد أن تقرأ صحفهم ، تلاحظ أحوالهم ، عاداتهم ، تقاليدهم ، ملابسهم ، لابد أن تدرس أوضاعهم السياسية ، نظام الحكم ، البرلمان . اقرأ كتاب الشيخ الطهطاوي " تخليص الإبريز في تلخيص باريز " واقرأ روايتي " علم الدين " ستجد أشياءً كثيرة تعينك على الفهم .
استمر اللقاء طويلاً . مر الوقت سريعاً ، فباريس بالنسبة لعلي مبارك هي الماضي الجميل ، وبالنسبة لمصطفى كامل هي الحلم المنتظر . " إيه يا عاصمة النور .. ها أنذا قادم إليك " .
أصر حسين بك واصف ، الأخ الأكبر لمصطفى ، أن يذهب مع أخيه إلى باريس ، حتى يرتب له أموره ويطمئن عليه ، وشجعه على ذلك أن الخديو عباس تحمل نفقات رحلة صديقه مصطفى إلى باريس .
ركب الاثنان السفينة البخارية ويمما نحو فرنسا .
كان مصطفى خلال رحلته مشغولاً بشيء لم يبح به لأخيه ، وهو : " هل ستساعده لغته الفرنسية على فهم الأسئلة جيداً ، والإجابة عنها ؟ لقد كان ضعيفاً في الفرنسية خلال المرحلة الثانوية ، وها هو يحاول منذ التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية أن يتمكن من ناصية هذه اللغة ، فهل ما حصله حتى الآن يكفي لأداء المهمة المرجوة بنجاح ؟ ".
لم يجد إجابة شافية عن سؤاله ، ورغم أن صديقه فؤاد سليم لطيف راح يبث الطمأنينة في نفسه إلا أن مصطفى كان يعلم أنه لن يطمئن إلا بعد الانتهاء من امتحاناته ، وإحساسه بمدى معرفته لهذه اللغة الجديدة .
في باريس قطع مصطفى نفسه عن كل شيء غير المذاكرة وأداء الامتحانات ، حتى الطعام كان لا ينتبه إليه إلا حين يدعوه أخوه إليه ، وبعد سفر أخيه كانت المذاكرة تنسيه الطعام أحياناً ، حتى ازداد نحافة وأحس باعتلال صحته .
لما انتهت الامتحانات أحس مصطفى بالراحة ، وعرف أنه صار متمكناً من الفرنسية ، وقرر أن ينتظر حتى تظهر النتيجة ، وأن يتعرف على باريس في هذه المدة كما أوصاه أستاذه علي مبارك .
زار كل مكان يمكن أن يزوره ، لكنه اهتم كثيراً بزيارة المكتبات ، واشترى كل ما وجده من كتب تتحدث عن مصر ، وراح يلتهم هذه الكتب . وحين ظهرت النتيجة وعلم بنجاحه عاد إلى مصر سعيداً ، يحلم باليوم الذي يتخرج فيه ، ويصير محامياً يدافع عن حقوق الأفراد والمجتمع .

(٤)

كان من أقرب الأصدقاء إلى نفس مصطفى كامل زميل له بمدرسة الحقوق الخديوية ، اسمه أحمد لطفي السيد ، وقد حرص مصطفى بعد عودته من باريس على زيارة صاحبه ، وعلم منه أخباراً مهمة ، منها أنه ذهب مع الخديو في رحلة إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ليطلب العون في مواجهة الإنجليز ، ومنها أن عبد الله النديم غيَّر منفاه الأول (يافا) وذهب إلى الأستانة .
ولعله من المهم هنا أن نتحدث عن الأستانة ، والدولة العثمانية ، وعلاقتها بمصر .
كانت مصر حتى عام ١٥١٧ دولة عظمى ، بل إنها كانت عاصمة العالم الإسلامي في العصر المملوكي ، بعد أن قام المغول بتدمير عاصمة الخلافة في بغداد . وقد ظهرت في أواخر العصر المملوكي قوتان كبيرتان هما :

- الدولة الصفوية في إيران .
- الدولة العثمانية في تركيا الحالية .

وبدلاً من أن تتعاون الدول الثلاث دخلت في صراع ، وانتهى هذا الصراع باستيلاء الدولة العثمانية على مصر ، وصارت مصر بذلك ولاية من ولايات الخليفة العثماني .
وقد أنهكت السنوات والمؤامرات الدولة العثمانية حتى سميت بالرجل المريض ، وطمع الأوروبيون في الولايات التابعة لها ، وحاولوا احتلالها ، واحتلوا الكثير منها بالفعل . بالنسبة لمصر فقد كانت أولى محاولات الاحتلال الأوروبي لها عام ١٧٩٨ على يد نابليون بونابرت وجيشه الفرنسي ، وكانت المحاولة الثانية على يد فريزر الإنجليزي عام ١٨٠٧ ، ثم كانت المحاولة الثالثة على يد إنجلترا وتسببت في احتلال استمر سبعين عاماً ، وامتد من عام ١٨٨٢ إلى ١٩٥٢ .

ورغم الاحتلال الإنجليزي كانت هناك سيادة اسمية للدولة العثمانية على مصر ، وكان فريق من المصريين يرى أنه لا مناص من التبعية للدولة العثمانية باعتبارها دولة الخلافة ورمز الوحدة الإسلامية . وكان الخديو عباس حلمي بالتحديد يأمل في مساعدة هذه الدولة له ضد إنجلترا ، ولذا شد الرحال إليها لطلب العون ، وكان في صحبته مجموعة من الشباب هم : أحمد لطفى السيد (طالب الحقوق) ، قاسم أمين (الذي درس الحقوق في مونبلييه بفرنسا ، ويقترب الآن من الحادية والثلاثين) ، سعد زغلول (الذي يقترب من الخامسة والثلاثين ، واشتهر ببلاغته ومعرفته القانونية التي جعلته من أشهر محاميي مصر) .
شعر مصطفى كامل بشيء من الغيرة حين علم أن زميلاً من دفعته رافق الخديو إلى الأستانة بينما هو لا يزال بعيداً عن الأنظار ، لكنه قال لنفسه : " لا بأس ، غداً حين أنتهي من دراستي لن ينافسني أحد في الشهرة ، والعمل مع الخديو ، والاحتكاك بالناس " .

(٥)

في يوم من أيام شهر نوفمبر الشتوية غامت شمس القاهرة ، وبدا الجو غير صاف . انقبض قلب مصطفى . قال لنفسه : ماذا يخبئ الغيب ؟
في المدرسة لاحظ وجوماً ، حزناً : - ماذا جرى ؟
- مات على مبارك .
لم تحمله قدماه حين سمع النبأ . هل حقاً مات الرجل الذي رعاه ووقف إلى جواره وحماه من بطش هؤلاء الذين لم ينتبهوا لعلامات الزعامة المبكرة لديه ؟ هل حقاً مات .. حقاً ؟
جرى إلى البيت ، وجد الجنازة على وشك التحرك ، سار خلفها . كانت جنازة مهيبة ، خرجت فيها مصر تودع أبا التعليم وأحد الرجال العظماء الذين قاموا بتحديثها . ولم يستطع مصطفى أبداً أن ينسى هذا الرجل وفضله عليه .

(٦)

اعتلت صحة مصطفى بسبب كثرة المذاكرة والسفر والإجهاد والحزن ، فنصحه الأطباء بتغيير الهواء، وصحبه أخوه حسين بك واصف في رحلته إلى الإسكندرية يستجم فيها من عناء المذاكرة والسفر ويتفرغ للاستمتاع بالحياة ، لكن مصطفى كامل ليس ممن يستعذبون الراحة ، فقد علم بوجود شاعر القطرين خليل مطران في الإسكندرية ، فذهب لزيارته وعرض شعره عليه ، وصحبه مطران في إحدى زياراته لصحيفة الأهرام، وهناك قدم مصطفى لصاحب الأهرام بشارة تكلا باشا ، فطلب تكلا باشا من مصطفى أن يكتب للأهرام ، وبالفعل بدأ مصطفى يكتب للصحيفة الشهيرة وهو في التاسعة عشرة من عمره .
ولم يكتف مصطفى بالكتابة للأهرام التي كانت تتخذ من الإسكندرية مقراً لها ، بل بدأ يكتب أيضاً لصحيفة المؤيد ، وهي صحيفة وطنية ، أنشأها الشيخ على يوسف ليواجه بها جريدة " المقطم " الموالية للإنجليز .
وإلى جانب هذه المقالات الصحفية ، كتب مصطفى - وهو ابن تسعة عشر عاماً – كتابه الأول بعنوان " الرق عند الرومان " . صحيح أن الكتاب لم يكن كبيراً ، لكنه أشار بقوة إلى أن مؤلفاً جديداً ظهر على الساحة .

(٧)

في منتصف العام التالي شد مصطفى الرحال إلى فرنسا وقد عقد العزم على أن ينتهي من دراسة الحقوق ، وبعد أن أدى امتحان السنة الثانية في يوليو طلب من إدارة كلية حقوق باريس أن تسمح له بامتحان الليسانس في العام نفسه ، ورفضت جامعة باريس الطلب . لكن الرفض لم يفت في عضده ، وراح يبحث عن مخرج ، حتى دله المخلصون على هذا المخرج . قالوا له : " إذا كانت حقوق باريس ترفض فحقوق تولوز تسمح بامتحان عامين دراسيين في سنة واحدة . فلتذهب إذن إلى تولوز " .

بلا تردد شد مصطفى الرحال إلى تولوز ، وتقدم بطلبه ، لكن الأمر لم يكن هيناً ، فقد انقسم المسئولون عن الكلية إلى قسمين : الأول يوافق على امتحان الطالب ، والثاني يرفض ، وقدم كل قسم وجهة نظره ، وكانت الغلبة للموافقين .

انهمك مصطفى في المذاكرة ، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فقد جاءته الأخبار من القاهرة بوفاة أخيه غير الشقيق (عبد الفتاح) ، وكان قريباً منه في السن ومحبباً إلى نفسه ، لذلك ترك مصطفى كل شيء وعاد إلى مصر ليشارك أسرته حزنها على الفقيد الغالي .

وللمرة الثانية هده السفر والحزن والمذاكرة ، واعتلت صحته ، لكنه لم يستسلم وعاد إلى فرنسا ليؤدي الامتحان المقرر في نوفمبر .

سارت الأمور بشكل حسن في الامتحانات حتى حان موعد امتحان مصطفى أمام الرجل الذي كان يعارض امتحانه للمرة الثانية في عام واحد ، فقد تشدد الرجل مع مصطفى وتعنت ، لكن مصطفى واجه هذا بحكمة ، ولم يتمكن الممتحن أمام فهم مصطفى وحسن إجاباته ، إلا أن يعطيه الدرجة التي يستحقها . وهكذا حصل مصطفى في نوفمبر ١٨٩٤ على ليسانس الحقوق من جامعة تولوز . وجاءه الممتحن المتعنت معه معتذراً عن تعنته ، معللاً سلوكه بأنه احترام للتعليم في فرنسا وسمعة التعليم الفرنسي . وكتب مصطفى لأخيه من فرنسا بعد حصوله على المؤهل يقول :

> " اليوم أحمد الله حمداً كبيراً ، وأشكره شكراً جزيلاً على فك قيد أسري ، والمن بإطلاقي في ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملاً شهادة الحقوق ، وعوّلت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيح لي الخير ، وبلغت ما أتمنى ، لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهي جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء . "

الفصل الرابع

بــداية الجـهـاد

(١)

كان الجو شتوياً بارداً ، وفبراير يفرض نفسه على الجميع ، الرياح العاصفة والأمطار المنهمرة ، أحكم مصطفى كامل إغلاق البالطو على صدره ، وأمسك طربوشه قبل أن تذهب به الرياح ، وأسرع إلي المقهي يتواري خلف زجاجه .

في المقهي وجد أحمد لطفي السيد يقرأ في إحدي الصحف مكفهر الوجه ، وسأله : مالك ؟

ـ ألا تعرف ماحدث ؟

ـ ماذا حدث ؟

ـ استطاع اللورد كرومر أن يقنع الحكومة بإصدار دكريتو لإنشاء محكمة تسمي المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يتهم من الأهالي بالتعدي علي ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر .

تغيرت ملامح مصطفي وهو يخطف الصحيفة من يد صديقه ، بحث عن الخبر بعينيه ، راح يلتهم السطور بسرعة مذهلة .

" تتألف المحكمة برئاسة ناظر الحقانية ، وعضوية المستشار القضائي الإنجليزي ، وقاض إنجليزي من محكمة الاستئناف الأهلية ، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء في جيش الاحتلال البريطاني بالقاهرة أو الإسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسي محكمة مصر أو الإسكندرية الابتدائيتين " .

ألقي مصطفي الصحيفة بغضب وهو يقول للطفي : إن معظم الأعضاء من الإنجليز.

ـ السؤال هو : لماذا هذه المحكمة أصلا ، ألا يكفي القضاء والقانون المصريين ؟

ـ إنها استهانة بالقانون والقضاء والمصريين أيضا، ولن أسكت أبدا علي هذا العبث .

هاجم مصطفي المحكمة المخصوصة هجوما عنيفا . كتب في الأهرام مقالا ناريا بعنوان: " صواعق الاحتلال " .

تعجب كرومر مما يحدث . من يكون هذا الفتي الذي قاد بالأمس مظاهرة ضده ، وألقي خطبة عصماء في الهجوم عليه ؟ واليوم يكتب عن مرسوم أصدرته الحكومة المصرية لصالح إنجلترا ؟ من يكون ؟ ألا يعرف من هو اللورد كرومر ؟ هل غره صمته ؟ .. حسنا فلنر ما هي النهاية التي يريد هذا المصري أن يصل إليها ..

(٢)

الليل يسيطر علي القاهرة ..

القمر لم يظهر في السماء بعد ..

ومصطفي كامل يسير وحيدا نحو بيته ، لا تشغله الأشياء التي تشغل الشباب في مثل عمره ،لا يفكر في فتاة يحبها ، أو زيجة يحلم بها ، أو وظيفة من وظائف الدولة تدر عليه دخلا منتظما يساعده في مواجهة الحياة .. لم يكن يفكر في شيء من هذا كله ، بل كان يفكر في شيء آخر ، شيء واحد لا ثاني له ، كان يفكر في مصر .

كانت مصر في عيني مصطفي كامل هي الحبيبة ، وكان يشقي بحبها الذي يملأ القلب كما شقي قيس من قبل بحب ليلي ، وكُثير بحب عزة ، وجميل بحب بثينه . آه ..

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حب مصر كثيرة العشاق

وتتداخل رؤى الحب العذري في عيني مصطفى برؤى التضحية في سبيل الوطن ، والاستشهاد في سبيل البلاد ، ويحلق مصطفى بعيداً مع الخيال .. وبينما هو في خياله المجنح يأتيه صوت خافت : - مصطفى أفندي .. مصطفى أفندي .

نظر إلى مصدر الصوت فرأى عربة حنطور ، يجلس فيها رجل ، قال الصون آمراً : " اركب " .

عرف الصوت .. إنه صوت عبد الرحيم بك أحمد ، أحد كبار رجال القصر ، ومحل ثقة الخديو . ركب جلس إلى جوار الرجل . قال له : خيراً ؟

همس : - الخديو يريدك .

نظر إليه متعجباً وكأنه يسأل لماذا لا يرسل الخديو له في وضح النهار وبشكل علني ؟ فهم عبد الرحيم السؤال . أكمل : - أفندينا لا يريد أن يعرف أحد بهذه اللقاءات .

هز مصطفى رأسه وصمت . أوقف عبد الرحيم الحنطور بعيداً عن قصر عابدين . سارا معاً على الأقدام في صمت حتى وصلا إلى باب جانبي صغير من أبواب القصر ، دق عبد الرحيم بك دقات معينة . انفتح الباب . دخل الرجلان واتجها من طريق خلفي إلى حيث يجلس الخديو عباس باشا . وقف مصطفى بأدب يستمع لمولاه :

- مصطفى أفندي إنني أحتاج إليك في بعض الأعمال الوطنية . سيكون عبد الرحيم بك هو همزة الوصل بيننا . سيلتقي بك في مواعيد محددة في أحد المقاهي ، وستدخل وتخرج من الباب الخلفي كي لا يعرف أحد بما ندبره
- طوع أمرك يا ولي النعم .
- مصطفى أفندي ، إنني أفكر في شرح قضيتنا للشعب الفرنسي ، فأنا أعلم العداء القائم بين الفرنسيين والإنجليز ، ولذا أريد كسب الفرنسيين إلى جوارنا في صراعنا ضد الاحتلال الإنجليزي .
- فكرة رائعة يا مولاي .
- لقد أرسلت لدعوة أحد النواب الفرنسيين المشاهير ، الذين يسمع لهم الشعب الفرنسي ، ولكني جعلت الدعوة غير رسمية ، أي أن الرجل سيحضر كما لو كان سائحا جاء لزيارة عادية .
- والمطلوب يا مولاي ؟
- أريدك أن تجعل زيارة هذا الرجل مظاهرة ضد الاحتلال الإنجليزي . أريد أن يكون الوطنيون في استقباله . أريد إقامة الموائد الفاخرة له ، وإلقاء الخطب الحماسية ، وإبلاغ رسالة واضحة للإنجليز بأننا سنستعين بفرنسا عليهم .
- سأفعل كل هذا وأكثر إن شاء الله يا مولاي ، لكن من يكون هذا النائب الفرنسي ؟
- اسمه مسيو فرانسوا دي لونكل .
- أعرفه.. لقد قابلته حين كنت في فرنسا بعد أن قرأت مقالاته التي تهاجم السياسة البريطانية ، وعرفت مناقشاته في البرلمان التي يعارض فيها السياسة الإنجليزية .
- عظيم . ستكون مرافقا له إذن أثناء وجوده في مصر ، وسأري ما تستطيع أن تفعله .
- سأفعل ما يسرك إن شاء الله يا أفندينا .

دار مصطفي كامل بنفسه علي كل الوطنيين الذين يعرفهم ، والذين قابل معظمهم في قصر لطيف بك سليم ، دعا زملاءه في الدراسة ، وأصحاب الأقلام ، والمفكرين الذين قابلهم في صالون علي باشا مبارك ، وأتباع الخديو الثقات، وصحب الجميع إلي الإسكندرية .

في الإسكندرية فوجئ بأن الخبر تسرب إلي الأهالي فاحتشد عدد من كبرائهم وأصحاب المواقف الوطنية ، وانضموا إليه حتى صار الحشد فوق كل حساباته .

علي رصيف الميناء وجد القنصل الفرنسي ، وكبار رجال القنصلية الفرنسية يتقدمون الجميع لاستقبال الشخصية الفرنسية المرموقة .

امتلأ مصطفي بالسعادة ، لكن العيون التي التقطت الحدث طيرت الأخبار لكرومر في القاهرة ، وبدأ الإنجليز يتململون .
رحب مصطفي بالضيف الذي بدا سعيدا بمقابلته في القاهرة ، وازدادت سعادته حين رأي الحفاوة والترحيب به في كل مكان . لفت نظره أن مصطفي يقف خطيبا كلما صحبه إلي مائدة أو حفل ، وأنه يخطب بالعربية والفرنسية بطلاقة واضحة.. كيف تمكن هذا الفتي من الفرنسية إلي هذا الحد ؟
بلغت الأخبار الخديو أحس أن مصطفي كامل يمكن أن يكون أحد الرجال الذين يعتمد عليهم في تنفيذ خطته للدعوة في أوروبا ، لذا استقبله هو ودي لونكل معا ، وكانت كلماته للطرفين واضحة : ـ سيكون مسيو دي لونكل مسئولا عن الدعوة لحق مصر في فرنسا ، وسيساعده مصطفي كامل ، وسأتحمل مصروفات هذه الدعوة كاملة ، المهم أن يعرف الفرنسيون تجاوزات الإنجليز في هذه البلاد ، وأن المصريين يكرهون هذا الاحتلال ، وينتظرون اليوم الذي يتخلصون فيه منه .
قال دي لونكل : تأكد يا صاحب السمو أنني سأقف إلي جانب الحق المصري ، وحق شعبكم في الحرية. ولاحظ الخديو الشاب أن صاحبه مصطفي لم يتكلم ، فسأله : إيه يا مصطفي ، فيم تفكر ؟ إياك أن تقول لي إنك تخشي الغربة .
لمعت عينا مصطفي وعاد من شروده العابر بسرعة ليقول :
- لا يا مولاي . إن الغربة لا تشغلني ، فأنا لا أفكر في شيء إلا خدمة الوطن . لكن كلماتك أوحت لي بفكرة مدهشة .
- أي فكرة ؟
- ألا تقتصر دعوتنا للقضية المصرية علي فرنسا وحدها ، بل نعممها ونصل بها إلي كل دول أوروبا. ضحك الخديو وهو يقول : لنبدأ بفرنسا أولا . لا داعي للتسرع يا مصطفي .
- كما تري يا أفندينا.
التقط الإنجليز أنفاسهم بعد ذهاب دي لونكل ، لكنهم رغم هذا بدأوا يضعون في اعتبارهم صعود شاب مصري معارض لهم ، ووراء هذا الفتي يقف الخديو .
ولم يلبث مصطفي كامل أن قام بإجراءات السفر إلي فرنسا ، فاطمأنوا إلي عودة الحال إلي ما كان عليه من الهدوء .
كان سفر مصطفي صعبا علي أسرته التي لم تتعود علي ابتعاده ، فالسفر في اعتقاد المصريين ليس شيئا محببا ، والأمثال تقول : " من خرج من داره قل مقداره" .
" الغريب أعمي ، ولو كان بصيرا " .
" الخارج مفقود والداخل مولود " .
وحين وجد مصطفي المعارضة شديدة مال علي أخيه الأكبر " حسين " وباح له بالسر ، كان الأخ رجلا عاقلا ووطنيا من طراز فريد ، لذا قال بلهجة حاسمة : مصطفي سيسافر ، ولا أريد مناقشات كثيرة .
وفي مايو ١٨٥٩ شد مصطفي الرحال إلي فرنسا ، ونفسه تمتلئ باللهفة كأنه مسافر للقاء حبيبة القلب .

*

في باريس اقترب مصطفي من دي لونكل إلي حد كبير ، كان الرجل زعيما أسرته أحلام الزعامة ، وأحلام الزعامة إذا تسلطت علي نفس رجل جعلته لا يري إلا نفسه ، لا يطيق أن يزاحمه أحد ، ولا يحب أن يظهر إلي جواره أحد في الصورة إلا الأتباع ؛ لذلك لم تلبث الخلافات أن دبت بين النائب الفرنسي الكبير والشاب المصري المتحمس لقضايا وطنه .

كان الصدام الأول في يونيو ١٨٩٥ أي الشهر التالي مباشرة لوصوله إلي فرنسا ، وكان سبب الصدام فكرة لامعة خطرت للمصري الشاب ، فقد استعان برسام فرنسي محترف لرسم لوحة فيها فرنسا وقد اتشحت بالعلم الفرنسي ، وصور مصر علي هيئة شاب يقدم لها طلبا ، ،إلي جانب هذا الشاب المصري يقف ممثلون يمثلون الأمم التي حررتها فرنسا ، وهي الولايات المتحدة وليون وبلجيكا وإيطاليا ، وفي الجانب الأمامي من اللوحة تظهر فتاة ترمز إلي مصر ، مكبلة بالأغلال يحرسها جندي بريطاني يقف إلي جواره أسد يرمز للتاج البريطاني ، وإلي جانب الفتاة يقف شيخ يتكئ علي جرة ينساب منها الماء ، وهو رمز واضح للنيل، وكتب تحت اللوحة :

أفرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك

انصري مصرا إن مصر بسوء واحفظي النيل عن مهاوي الهلاك

وانشري في الوادي الحقائق حتى تجتلي الخير أمة تهواك

وترجم هذه الأبيات إلي الفرنسية ، وطبع من اللوحة عددا كبيرا من النسخ ، وأخذ النسخة الأولي منها وطار إلي دي لونكل يعرضها عليه . تغير وجه الرجل وسأله في تجهم :

- وماذا تريد أن تفعل بهذه الصورة ؟
- أريد أن أرسلها لرئيس البرلمان وأعضائه وإلي الصحف و..
- لا لا لا .. لا تفعل شيئا من هذا.
- لم .
- سأقدمها أولاً إلي رئيس الجمهورية .
- فكرة جيدة ، وسأنتظر منك خبرا بأنك قدمتها للسيد الرئيس .

امتلأت نفس مصطفي فرحا . وراح يتخيل فكرته المصورة بين يدي رئيس فرنسا . رآه بعين الخيال معجبا بها . يسأل : هل تعلق علينا مصر الآمال إلي هذا الحد ؟

- وأكثر يا سيادة الرئيس.
- قدموا لها كل المساعدات إذن حتى تخرج إنجلترا من أرضها.

حلق به الخيال كثيرا ، وقضي أياما يحلم ، ثم ذهب لصاحبه الفرنسي دي لونكل يسأله عما فعل ، لكنه راح يقدم الحجج ، واستمر يقدم الحجج لفترة طويلة بعد ذلك.. مرة يتعلل بأنه لم يجد الوقت ، ومرة يؤكد أن الرئيس كان مشغولا ، وثالثة يذكر أن الرئيس لا يقبل هدايا إلا من رئيس مثله أو من ملك . حينئذ فهم مصطفي أن دي لونكل لا يريد للوحته أن تظهر للنور ، فقرر ألا يعتمد عليه .

ذهب مصطفي إلي جامعة باريس حيث يدرس نخبة من المصريين ، نقل لهم فكرته . طلب منهم أن يشاركوه في تشكيل وفد للذهاب إلي البرلمان الفرنسي وتقديم اللوحة . وافقوا . وذهبوا إلي سكرتارية مجلس النواب فتركوا اللوحة ، ومعها خطابا من مصطفي كامل إلي رئيس البرلمان . ولم تمر سوي أيام قلائل حتى بدأ صدي اللوحة يظهر ، مما شجع مصطفي علي توزيعها علي دور الصحف ، وكبار الصحفيين ، فتوالت الكتابات عنها .

وصل أمر الصورة إلي الصحف الإنجليزية ، فكتبت إحدي هذه الصحف تهاجمها :

- " ظهر بين المصريين رجل مهيج يدعي أنه مصري ، والحقيقة أنه تركي ، وقد كان أبوه موظفا في سراي الخديو . قدم هذا المهيج المغرور استنجادا لفرنسا من الاحتلال ، ونسي ما عليه إنجلترا من القوة والحق في احتلال مصر - ويظهر أن المصريين ناكرو جميل لأنا أحسنا إليهم ، فعلمناهم بعد أن كانوا أنعاما ، ونظمنا جيشهم . وحسنا أحوالهم المالية ، فالرأي العام الإنجليزي لا يلتفت إلى هذا الهذيان الذي يدل على أن يداً كبيرة تحركه ضد إنجلترا صاحبة الحول والطول .

وإننا ننذر هذا المصري وغيره إنذاراً أخيراً بأن الدول الأوروبية جميعاً ترى مصلحتها في بقاء الاحتلال ليضمن لها مصالحها ، لأن المصريين ليسوا أكفاء لهذا العمل" .

وصلت الأنباء إلى مصر مع بعض النسخ من اللوحة ، فتخاطفها المصريون ، وحفظوا الشعر المكتوب عليها ، مما زاد نار الاحتلال اشتعالاً ، وزاد مصطفى كامل شهرة ، وزاد دى لونكل غيظاً بعد أن خرج مصطفى كامل من تحت سيطرته . فكتب يشكوه للخديو ، وراح يسبب له المضايقات

ويحاول تكبيل خطواته ، لكن مصطفى لم يستسلم فقد شكا هو الآخر دي لونكل للخديو ، وأكد له أن قيام شاب مصري بالدعوة لبلاده أفضل من قيام أحد الفرنسيين بها . وأهم من الشكوى أن مصطفى لم يكف عن الحركة ، فذهب إلى جامعة تولوز التي حصل منها على الليسانس ، وطلب تنظيم محاضرة عن مصر والاحتلال الإنجليزي ، وانعقدت المحاضرة في كلية الآداب في يوليو ١٨٩٥ ، وكان لها وقعها في الأوساط الفرنسية .

وبعد ذلك بشهر واحد نشر مصطفى كامل رسالة بعنوان " أخطار الاحتلال البريطاني " فجاءه حوالي مائة خطاب ممن اطلعوا عليها من الفرنسيين وغيرهم . وتمكن في نهاية العام من تنظيم محاضرة ، أو خطبة ، في الجمعية الجغرافية بباريس ، وهي واحدة من أكبر الهيئات العلمية في فرنسا . وكأنه كان يخرج لسانه لدى لونكل الذي لا يريد لأحد أن يظهر في الصورة غيره .

كان الخديو حريصاً على علاقته بدى لونكل ، ولا يريد أن يخسره فيتحول إلى الجانب المعادي ، لذا وجه تعليماته لمصطفى بأن يعمل في ظله ويصفي خلافاته معه . ولأن مصطفى لم يلتزم بتعليمات ولي النعم فقد قرر أن يعاقبه وأن يقطع عنه المال الذي ينفق منه على نشاطه ، بل أمره بالعودة ، لكن مصطفى قرر العناد ، لم يعد ، ولم يستسلم ، وأرسل لصاحبه فؤاد سليم يطلب مساعدته :

" بلغ والدك أني ، باسم الوطن المقدس ، وليس باسم الصداقة ، ألتمس منه هو وحده أن يرسل لي مبلغ ١٥٠ جنيهاً هذا الشهر لهذه السنة كلها ، ولن أطلب منه شيئاً بعد ذلك . وفي السنة المقبلة سوف أدبر أمري ، فوالدك يدفع ١٥٠ جنيهاً ، والهلباوي ١٥٠ جنيهاً ، ومحمود سالم ١٠٠ جنيه . إن ٤٠٠ جنيه من هؤلاء الوطنيين الثلاثة ستكون لها قيمة كبيرة عندي أكبر من نقود عباس ".

لكن الرد جاءه مخيباً للآمال ، مما أجبره على العودة كسيراً تفيض نفسه بالألم . هل يمكن أن يتخلى عنه الجميع ؟ هل يبخلون عليه بالمال وهو الذي يقدم عمره لخدمة قضايا الوطن ؟ رباه ... رحمتك .

*

غضب الخديو عباس على مصطفى كامل غضباً شديداً . اعتبره متمرداً، كيف يكف عن إرسال المال له ويأمره بالعودة فلا يطيع ؟ ولأنه غاضب فقد رفض استقبال مصطفى أو الاستماع إليه ، وللمرة الثانية قرر مصطفى ألا يستسلم ، وكتب إلى عبد الرحيم أحمد ، رجل الخديو المقرب ، رسالة يقول فيها : " إذا لم يقابلني الخديو هذا الأسبوع ، فإني أحمل كل هذا التأخير على عدم حاجتكم إلى خدماتي ، وأظنكم لا تلومونني إذا عملت من أول الأسبوع الآتي بغير استئذانكم أو انتظار تبليغاتكم " .

ولم يلبث أن توجه فحجز تذكرة إلى باريس ، وعندئذ قرر عباس ألا يصل بالأمور لحد القطيعة ، فأرسل يدعو مصطفى للقائه :

- هل وصل بك الأمر لحد العصيان يا مصطفى ؟
- مولاي ، حاشا لله أن أعصي ، لكنك استمعت لمن يدسون لي عندك ، وأمرتني أن أعود إلى مصر في وقت كان نجاح مهمتي في باريس محل اهتمام أشهر الصحف الفرنسية ، ورجال فرنسا الكبار ، وأهل العلم فيها .
- ألا تدري أن هذا ألب عليَّ الإنجليز ؟
- لذلك لم أعد حين دعوتني .
- ماذا ؟!!
- لو عدت وقتئذ لقالوا أني عميل لك أأتمر بأمرك .

صمت عباس لحظة ، أحس أن كلام مصطفى منطقي ، لذا قال له :

- لنقلب صفحة الماضي إذن .
- هذا عين العقل يا مولاي .

- في المرحلة القادمة أريد ألا يقتصر نشاطك على أوروبا . لابد من إيقاظ الناس في مصر أيضاً . إن خطبك تشعل حماسهم . فلتقسم وقتك بين مصر وأوروبا .
- لك هذا يا ولي النعم .

*

ذهب مصطفى كامل إلى الإسكندرية للاستجمام ، نزل بفندق آبات بالمنشية ، وعلم صديقه إسماعيل بك شيمي بوجوده فذهب إليه وأصر على أن يترك الفندق وينزل بداره ، فعار على إسماعيل شيمي أن ينزل صديقه في أحد الفنادق وبيته موجود .
كان إسماعيل شيمي يعمل ياوراً للخديو ، ثم ترك الخدمة في القصر وصار قاضياً بالمحكمة المختلطة بالإسكندرية ، واتخذ لنفسه مسكناً بحي الأنفوشي العريق ، وفتح أبوابه لوجهاء المدينة ، وربطته بهم صداقات وروابط .
لذلك اتجهوا جميعاً إلى منزله حين علموا بنزول مصطفى عنده ، ودعاه إسماعيل شيمي إلى إلقاء خطبة في أهل الإسكندرية الذين يحبونه ويتابعون أخباره في الصحف المحلية والأجنبية ، ولم يتردد مصطفى ، فها هي الفرصة جاءته لتنفيذ وعده للخديو بإيقاظ الروح بين المصريين .
استأجر شيمي بك المسرح العباسي ليكون محلاً لخطبة مصطفى كامل . ويقدر بعض المؤرخين عدد الحاضرين في هذا الحفل بثلاثة آلاف مواطن . ويصف المؤرخ عبد الرحمن الرافعي هذا الحفل فيقول : " كان الاجتماع حافلاً بالمستمعين من صفوة القوم ، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب ، وكان الزحام شديداً إذ لم يبق مكان في التياترو خالياً ، وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام " ألهب الزحام مشاعر الزعيم ، وألهب الزعيم مشاعر الحاضرين بكلماته . شرح لهم ما يفعله الإنجليز ، هاجم الاحتلال ، نادى بحق مصر في الاستقلال والحرية ، ودوت الأكف بالتصفيق ، وعلت الحناجر بالهتاف ، وأحس الناس بأن واحداً منهم يعبر عما يدور بأنفسهم ، ويجسد أحلامهم ، ونسوا أنه لم يتجاوز الثانية والعشرين ، ولم يروا فيه غير زعيمهم الملهم . وبدأت منذ هذا اليوم علاقة خاصة جداً بين مصطفى كامل وأهل الثغر . لكن أهم شيء في هذه الرحلة أن مصطفى كامل أحس بضرورة الالتحام بالجماهير المصرية ، وأن هذا العمل لا يقل خطورة عن الدعوة للقضايا المصرية في أوروبا ، وتحدث إلى نفسه مؤنباً : " كيف فاتني هذا ؟ كيف ؟ ".

(٣)

قال الخديو لمصطفى كامل مستغرباً : ما هذا الذي يفعله صاحبك ؟
- أي صاحب يا مولاي ؟
- أحمد لطفي السيد .
- ماذا فعل يا عزيز مصر ؟
- كوَّن جمعية سرية دون علمي .
- وما هدف الجمعية ؟
- طرد الإنجليز .
- هو يتفق معنا إذن في الهدف .
- نعم ، وكان يجب ألا يكوِّن جمعيته دون علمنا .
- إذا شئت جلالتكم أن أتحدث معه في الأمر ، وأن نعيد تشكيل الجمعية برئاستكم ، فسوف أذهب إليه فوراً وأرتب معه كل شيء .
- نعم اذهب إليه فوراً ورتب كل شيء .

تبلورت الفكرة في رأس مصطفى كامل ، وبدلاً من التفكير في جمعية فكر في إنشاء حزب سري ، ورأى أن يسمي الحزب بـ " الحزب الوطني " ولم يلبث أن التقى بصديقه وزميل دراسته " أحمد لطفي السيد " فبادره بالقول : - إن الخديو عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية وأغراضها ، وأظن أنه لا تنافى بينها وبين أن تشترك معنا في تأليف حزب وطني تحت رياسة الخديو .

قال لطفي : - لا مانع عندي من ذلك .

- سأبلغه بهذا وأحدد لك موعداً معه .

والتقى الشابان : أحمد لطفي السيد وعباس . اتفقا على أن هدف الحزب العمل للتخلص من الاحتلال ، وأن مكان الاجتماع سيكون مسجداً في سراي القبة ، وأن يكون للأعضاء أسماء حركية مستعارة حتى لا يتعرف أحد عليهم . وكان الخديو يسمى بـ " الشيخ " ومصطفى كامل يسمى " أبو الفداء " ولطفي " أبو مسلم " وهكذا .

لم يكن أعضاء الحزب كثيرين ، لكنهم رغم قلتهم ظهر منهم بعد ذلك الزعماء ، ورجال الأحزاب المشاهير ، أمثال محمد فريد (الحزب الوطني) ، عبد العزيز فهمي (حزب الوفد) ، أحمد لطفي السيد (حزب الأمة ، ثم الأحرار الدستوريين) و .. مصطفى كامل طبعاً .

ولعله من الضروري هنا أن نقدم معلومة مفيدة عن تاريخ الحزب الوطني ، إذ شهد تاريخ مصر أربعة أحزاب تحمل هذا الاسم ، الأول ظهر في عصر عرابي وضم نخبة من المفكرين المصريين والمتعاطفين معهم ، واتخذ له شعاراً " مصر للمصريين " ، وكان يهدف إلي تخليص مصر من العنصر التركي المسيطر عليها والأطماع الأجنبية التي تنهب خيراتها . وكان حزباً سرياً .. أما الحزب الثاني فهو الذي ذكرناه منذ قليل وكان أيضاً حزباً سرياً ، أما الثالث فهو الحزب العلني الذي كونه مصطفى كامل ١٩٠٧ ، ثم جاء الرابع على يد أنور السادات .

تحسنت علاقة مصطفى كامل بالخديو عباس بعد العمل المشترك في الحزب ، مما سمح له في منتصف العام أن يطلب من ولي النعم الموافقة على سفره لأوروبا ، في جولة تضم فرنسا وألمانيا والنمسا ، فوافق وشد مصطفى الرحال ، وظل في جهاده بين مصر وأوروبا حتى هده العمل ، وتآكلت صحته ، وأصابته الأمراض . وتحالفت الأحزان مع الأمراض على الفتى النحيل المرهف ، حين خطف الموت منه أستاذه النديم الذي مات غريباً في الأستانة في أكتوبر ١٨٩٦ ، ثم لحق به الأفغاني الذي أوقد شعلة الثورة في مصر في عهد إسماعيل ، وها هو مصطفى يأوي بأمر الأطباء الحازم إلى مشتى حلوان للاستشفاء . لكن .. هل يستطيع المرض أن يقهر من كانت له إرادة مثل هذا الفتى ؟

الفصل الخامس

الصدمة اسمها فاشودة

في لقاء سري بين مصطفى كامل والخديو عباس ، قال مصطفى متفائلاً :

- أبشر يا مولاي ، اقترب الفرج .
- ماذا تعني ؟
- عن قريب ستصطدم فرنسا مع إنجلترا ، وستتخذ فرنسا من الصدام فرصة لإثارة القضية المصرية ومطالبة إنجلترا بتنفيذ وعودها بالجلاء عن مصر .
- أوضح أكثر .

راح مصطفى يشرح ، قال للخديو إن فرنسا حركت قواتها في الطريق إلى السودان لاحتلال قرية تسمى فاشودة ، وهي قرية شديدة الأهمية لحركة التنقل والتجارة ، ولا يمكن أن تسكت إنجلترا طبعاً على احتلال جزء من السودان ، لذا فالصدام أكيد ، وقد أخبرني الفرنسيون بأنهم على استعداد للقتال لو لزم الأمر ، سعياً لتحرير مصر .

سرح عباس بخياله ، رأى الحرب تدور ، والمدافع تقصف ، والمشاة يتقدمون ، يستردون الأرض ، ليسلموها للمصريين باعتبارهم أصدقاء . تنفس بعمق ، قال حالماً : من يدري .. قد تتحقق المعجزة .

كانت ثقة مصطفى وعباس في فرنسا بلا حدود ، رأوا فيها طريقهما إلى الخلاص ، واستسلما للحلم .

وصلت القوات الفرنسية بقيادة الكابتن " مارشان " إلى فاشودة يوم ١٠ يوليو ١٨٩٨ ، وفهمت إنجلترا ما فعله الفرنسيون فهماً يختلف عن فهم عباس ومصطفى . كانوا يدركون أن فرنسا لا يهمها مصلحة مصر على الإطلاق ، وإنما هي تسعى لتحقيق مكاسب في إفريقيا على حسابها ، لذلك قررت أن تكشفها للمصريين ، دون أن تخسر شبراً واحداً . وأصدر اللورد كرومر حاكم مصر الفعلي أوامره لسردار الجيش المصري كتشنر بالتقدم إلى فاشودة ، فتقدم وبصحبته ألف وثمانمائة جندي مصري ومائة جندي بريطاني ، ووصلت القوات إلى فاشودة في سبتمبر .

كان أول ما فعله كتشنر أن رفع العلم المصري على فاشودة ، ولأنه عسكري محنك فقد أرسل عيونه قبل وصوله لتأتي له بأخبار القوات الفرنسية ، وقد جاءته أخبار أسعدته ، فالقوات الفرنسية لا يزيد عددها عن مئة وعشرين جندياً سنغالياً ، وعلى رأسهم عشرة ضباط فرنسيين ، ولو دخلوا في حرب مع كتشنر ورجاله المصريين الأشداء لأبيدوا دون ثمن .

أرسل كتشنر إلى الكابتن مارشان يطلب أن يتفاهما معاً قبل أي اشتباكات . لبى مارشان الدعوة . وفي اللقاء احتج القائد الإنجليزي على احتلال فرنسا لبلد مصري ، واعتدائها على أملاك الخديو ، وأكد أنه جاء ليرفع العلم المصري على فاشودة باسم مصر ، وإذا اقتضى الأمر فسوف يحارب من أجل استعادتها .

فكر مارشان في كلمات كتشنر بهدوء ، لم يكابر ، سأله سؤالاً محدداً :

- وما مطالبك ؟
- الجلاء عن فاشودة والأراضي السودانية .
- أوافق .
- متى ؟
- فور أن تجمع قواتي مهماتها وأسلحتها .

راح مارشان يتلكأ في جمع الأسلحة والمهمات ريثما تتمكن بلاده من التحرك بأي شكل . والمهم أن فرنسا لم تدعم قواتها ، ولم تلوح أو تهدد باستخدام القوة ، بل أدارت الأزمة سياسياً ، وإدارتها في حدود مصلحتها دون أن تفتح باب الحديث عن مصر واحتلالها ووجوب الجلاء عنها . وفي الحادي عشر من ديسمبر وقف كتشنر يرقب القوات الفرنسية وهي تغادر فاشودة في انكسار وخزي .

كان الانسحاب الفرنسي صفعة لكل المصريين الذين علقوا الآمال . وأدرك الجميع أنهم كانوا واهمين ، وأن الحلم كان سراباً .

بعد الصدمة تحول كثيرون ممن كانوا يناوئون إنجلترا عن مواقفهم . آمنوا أن الاحتلال حقيقة ، وأن المقاومة عبث ، وكان على رأس هذا الفريق الخديو عباس حلمي نفسه . إلا أن فريقاً آخر قرر ألا

تقضي الصدمة على حلمه بالحرية ، وألا ينتهي طريق الجهاد على صخرة الخذلان الفرنسي ، وكان على رأس هذا الفريق مصطفى كامل .

بعد الانسحاب الفرنسي بأيام ، وفي ذروة اليأس ، وقف مصطفى كامل خطيباً ، وأرسل للمصريين رسالة غالية . قال لهم جملته الخالدة : " لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة " .

الفصل السادس

لا معنى للحياة مع اليأس

(١)

قرر مصطفى كامل أن يفتح أبواباً جديدة للأمل بدلاً من الباب الذي أغلقته فرنسا ، وهداه تفكيره إلى أن أهم هذه الأبواب " نشر التعليم " ، فقد توصل فتانا أخيراً إلى حقيقة خطيرة ، وهي أن المشكلة الأساس في مصر ليست الاحتلال ، بل هي التخلف ، وقد قال في إحدى خطبه :

" المسألة المصرية الحقيقية ليست هي مسألة الاحتلال ، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية ، واستحكام الشقاق بين أفرادها ، وما مسألة الاحتلال الإنجليزي إلا مسألة فرعية بالنسبة لها ، فإن بقاء الأمة متأخرة منحلة الأعضاء يعرضها إلى كافة الأخطار في سائر الأزمان ، وتقدمها في طريق العرفان واتفاق بنيها على خدمتها وتعاضدهم على إسعادها يحميها من الطوارئ والنوازل ويقيها شر الأعداء "

لكن ما السبيل لنشر التعليم ، وهو يحتاج إلى المدارس ، والتجهيزات ، وهيئات التدريس ، وإقناع أولياء الأمور بإرسال أبنائهم للتعليم ، وهذا كله ليس أمراً هيناً . كان مصطفى مشغولاً بالبحث في كل هذا ، وبينما هو في انشغاله إذ بشابين يتقدمان منه ، يحييانه ، يرد تحيتهم وفي عينيه تساؤل :

- من أنتما ؟

قرآ التساؤل ، وأجابا :

- أنا أحمد صادق .
- وأنا محمد سعيد التومي .

رحب بهما :

- أهلاً بكما . هل من خدمة أقدمها لكما ؟
- المسألة لا تتعلق بخدمات ، بل بواجب لك علينا .
- أي واجب ؟
- المساعدة في نشر التعليم . لقد ناديت بهذا الأمر كثيراً باعتباره وسيلة لمقاومة التخلف ، لذلك رأينا أن نشارك في هذه المهمة الوطنية ، وأنشأنا مدرسة على نفقتنا الخاصة ، ونريد منك أن تأتي لتفتتحها .

أحس مصطفى أن يداً امتدت لتنتشله من أحاسيس كئيبة ومحزنة تعتصر نفسه . سأل الشابين :

- أين تقع مدرستكما ؟
- في باب الشعرية .
- وما اسمها ؟
- مدرسة مصطفى كامل .
- ماذا ؟ !

لأول مرة منذ زمن بعيد عرفت شفتا مصطفى الابتسام . أحس إحساساً عميقاً بالامتنان . ها هي الأمة تتحرك ، ها هما شابان يضحيان بالمال من أجل أن يتعلم أبناء وطنهما .. اللهم لك الحمد . لقد جاء هذان الشابان في وقت أنا أحوج الناس فيه إلي يد تربِّت عليَّ وتشد أزري . اللهم حمداً لك .

في الموعد المحدد تقدم مصطفى ، على يمينه أحمد صادق ، وعلى يساره التومي ليبدأوا حفل الافتتاح . تفقد الجميع أرجاء المدرسة ، ثم اتجهوا للفناء حيث تحتشد الجماهير لسماع الزعيم ، وراح الزعيم يخاطب أمته ، يؤكد لهم أهمية التعليم لتحقيق التقدم .. إيه يا أبناء مصر .. لقد أعدتم لي الأمل . وإذا كنت بالأمس قد تحدثت عن الأمل بكلمات لا أملك غيرها ، فها أنتم تقومون بتحويل الكلمات إلى فعل .. ما أروعكم يا أبناء هذا البلد ، وما أعظم اعتزازي بكم .

(٢)

لله في خلقه شؤون ..

كما أصاب سهم فاشودة قلب مصطفى ها هي الأيدي تحنو وتربت عليه .. بعد قليل من افتتاح مدرسته ذهب مصطفى إلى الأستانة ، عاصمة الدولة العثمانية ، فدعاه السلطان لمقابلته ، وأنعم عليه برتبة المتمايز ، وهي رتبة تسمح لحاملها بأن ينادى بلقب " بك " ، وهكذا صار مصطفى " مصطفى بك كامل " وهو في الخامسة والعشرين .

(٣)

وجد مصطفى أنه يكتب مقالاته ويرسلها لهذه الصحيفة أو تلك ، فتزاحمها المقالات الأخرى ، وقد تتلكأ إحدى الصحف في النشر ، أو تمتنع عن النشر أصلاً لاختلافها معه في وجهة النظر ، لذا رأى ضرورة إنشاء صحيفة تعبر عن أفكاره ، وترتبط به ، وتحرره من سيطرة رؤساء التحرير الآخرين .
فكر في اسم لها ، ووقع اختياره على " اللواء " ، واللواء هو العلم ، هو الرمز الذي يضم أبناء الوطن على اختلاف مشاربهم وآرائهم . ثم اتخذ داراً أو مقراً للصحيفة في باب اللوق ، وجهزه بالمعدات وعين له العمالة القادرة على إصدار صحيفة تنافس الصحف العتيدة الموجودة ، وأهمها : صحيفة "المقطم " التي تتحدث باسم الإنجليز ، وصحيفة "المؤيد" التي تتحدث باسم الخديو .
ومن المؤكد أن "اللواء" كانت شيئاً غير محبب لأصحاب الجريدتين ولمن تتكلمان باسمهما ، إلا أن مصطفى لم يهتم بهذا ، فالحماية الحقيقية للزعيم هي الجماهير ، وهذه الصحيفة واحدة من أنسب الوسائل للربط بينه وبين أبناء الأمة .
ومن حسن حظ مصطفى كامل أنه تمرس بالصحافة منذ أن كان طالباً ، حين أصدر مجلة المدرسة ، وأنه مارس الكتابة الصحفية بأنواعها ، فكتب المقال ، وأجرى الحوار ، وحقق ضربات صحفية كانت وقتها من أهم ما شغل الرأي العام .
وقد أثبتت التجربة أن مصطفى كامل لم يكن مجرد كاتب ، بل كان قادراً على الإدارة الناجحة ، لأن إصدار صحيفة يعني إدارة عمال ، وصحفيين ، ودراية بالحسابات ، ومعرفة بأهمية التوزيع ، وغير ذلك من المهام الإدارية والفنية التي قد يضيق بها الزعماء .
صدر العدد الأول يوم الثلاثاء ٢ يناير ١٩٠٠ ، ونجح الزعيم في اجتذاب أكبر كتاب العصر ليشاركوا في تحرير صحيفته ، أمثال : محمد فريد ، أحمد شوقي ، إسماعيل صبري ، خليل مطران ، وطبعاً فؤاد سليم .
وتلقفت الأيدي "اللواء" ، وصارت منذ صدورها هي الصحيفة الأولى في مصر ، ونجحت في أن تغطي تكاليفها وتحقق ربحاً سمح لمصطفى كامل بالاستغناء عن طلب المال من الخديو وغيره للإنفاق على الرحلات التي يقوم بها لأوروبا للدعوة للقضية المصرية . وأهم من هذا كله ربطت بين الزعيم والأمة ، وصارت سلاحاً في يده يلجأ إليه في القضايا القومية .

*

هكذا أعلن مصطفى عدم الاستسلام لليأس ، فأيده الله بأن فتح أمامه أبواب الأمل في لحظات الشدة ، وهكذا لم يكتف فتانا بالكلام، بل سعى واجتهد حتى قدم لمصر واحدة من أهم الصحف في تاريخها .
لكن هل انتهى صراع اليأس والأمل عند هذا الحد ؟
هل انتهت الصدمات ؟

الفصل السابع

السباحة ضد التيار

(١)

ها هي السنون تمر بحلوها ومرها.
نحن الآن فى عام ١٩٠٤.
اسم فتانا الآن يملأ الدنيا رغم أنه لم يتجاوز الثلاثين .. وها هو يزور الأستانة في شهر مارس، ويستقبله السلطان بالحفاوة والترحاب . يسأله: مصطفي ما هي رتبتك؟

- أحمل رتبة المتمايز يامولاى.
- لا ..إنها لا تناسبك . أنت تقدم خدمات جليلة لدولة الخلافة ، لذلك سنمنحك رتبة تليق بك .
- أى رتبة يا سلطان المسلمين؟
- رتبة ميرميران
- هذا فضل سابغ منك يامولاى أمير المؤمنين... شكراً لك،.. شكراً لك .

ورتبة ميرميران تعني بالعربية أمير الأمراء ، وصاحبها يحمل لقب باشا، ونادراً ما يصل إنسان من عامة الشعب إلي هذه الرتبة ، لكن نبوغ مصطفي تجاوز به كل الحدود.

(٢)

عاد مصطفي إلي مصر سعيداً . إلا أن سعادته لم تطل فقد وصلته الأنباء من المغرب بما لا يسر القلب .
كانت العلاقة بين إنجلترا وفرنسا قد تأثرت منذ حادث فاشودة (١٨٩٨) ، وحين تولي إدوارد السابع عرش إنجلترا (١٩٠١) رأى أن من الخطأ أن تدخل إنجلترا وفرنسا في صراع ، وسعي سعياً حثيثاً لإعادة العلاقات بين البلدين إلي حالة من الوفاق، ولم يتردد في زيارة فرنسا بنفسه عام١٩٠٣.
في ظل السياسة الجديدة بدأت الدولتان تتفقان علي ما يحقق مصالحهما دون صدام ، ولذا حين وصلا للحديث عن مصر فقد أعلنت فرنسا أنها لن تعرقل عمل إنجلترا في مصر ،لا بطلب تحديد مدة للأحتلال البريطاني ، ولا بأي صورة أخري . ودفعت إنجلترا ثمن هذا لفرنسا بأن تعهدت لها بأنها لن تعرقل عملها في مراكش. وهكذا باعت فرنسا الصديقة مصر لإنجلترا فيما عرف بالاتفاق الودي (أبريل ١٩٠٤).
ساءت المعنويات في مصر بلا حدود...
فقد المصريون الأمل في الجلاء..
رأي البعض أن الحل الوحيد أمامهم هو الانضمام للإنجليز، والعمل في ظلهم، باعتبارهم السلطة الفعلية ..
وعلا صوت اللورد كرومر، وازداد عنجهية ، وكتب تقريره السنوي فسلب المصريين كل ميزة،ورماهم بكل نقيصة،وأكثر من هذا أنه بدأ يطوف المدن باعتباره الحاكم الفعلي،وبدأوا يستقبلونه كما لو كان ملكاً.
أما عباس حلمي فقد رأي أن من الحكمة ألا يصطدم بالإنجليز،وأن يحسن علاقته بهم مادام الصدام لن يفيد.
رجل واحد وقف في وجه هذا التيار،هو:مصطفي كامل .. وكما قال من قبل:
"لا معني للحياة مع اليأس ولا معني لليأس مع الحياة"، راح يعيد ويزيد القول في الوطنية،وفي ضرورة حب الوطن، والتضحية لأجله، ومن خطبة له بمسرح زيزينيا بالإسكندرية في ٧ يونيو ١٩٠٤

"إن الذي يصغي إلي ضميره منادياً في كل لحظة بوجود خدمة الوطن وإعلاء شأنه، يشعر بأن دم آبائه الذي يجري في عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التي لا شرف إبها ولا حيلة بغيرها ،
ولا رفعة بدون رفعتها، ولا مجد إذا زال مجدها."
و " إن قيمة الوطنية ليست مما تميل النفس إليه ساعة ثم تنفر منه ساعة ، أو وسيلة للكسب تنقضي بانقضائه، إنما الوطنية شعور ينمو في النفس ويزداد لهيبه في القلب،ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه ،واشتدت كربته...
لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقّة ، ولا معني للعيش بدونها ، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها"

هكذا راح مصطفي كامل ينفخ روح الوطنية في نفوس الشعب،راح يسبح عكس التيار،مؤمناً بوطنه،مراهناً علي المستقبل،مؤكداً أن الحياة واليأس لا يجتمعان.

(٣)

اشتد المرض علي الزعيم الشاب .. كان الدرن ينهش صدره ، يأكل رئتيه ، يذيبهما ، يحولهما إلي بحيرة دم،وأمام هذا كان لابد لمصطفي أن يذهب للمصحة ، يسلم نفسه للسرير والأطباء والأدوية .

في المستشفي راح يفكر في ضعف بدنه وقوة روحه ، وقال جملة بليغة تصور حاله أصدق تصوير:

" كأن الطبيعة قد خالفت سنتها،إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي ".

لكن.. هل تتركه الأحداث يكمل علاجه ويستعيد صحته؟

ها هي الأحداث تفرض عليه أن يترك سرير المرض وينزل إلي المعترك.

نحن الآن في عام ١٩٠٦ ، بالتحديد في شهر يونيو.. في مديرية المنوفية. وقد قررت إدارة الاحتلال إرسال دوريات إلي الريف لتبث الخوف في قلوب الفلاحين، وكالعادة أرسلت إدارة الاحتلال إلي مديرية المنوفية والمراكز التي ستمر بها الدورية ليتخذوا الاستعدادات اللازمة، وأرسل مأمورو المراكز إلى العمد، وشدد العمد علي مشايخ الخفراء ، واستعد الخفراء لحراسة الدورية.

وصلت الدورية إلي بلدة الكوم الأحمر من قري مركز منوف وعسكرت هناك يوم الثلاثاء ١٢يونيو، وكان علي رأس الدورية الميجور باين كوفن.

طلب كوفن من المأمور أن يدبر له العربات اللازمة لنقله هو ومجموعة من ضباطه إلي دنشواي لصيد الحمام ، فالموسم الآن موسم حصاد ، والقمح في الغيطان والأجران يغري الحمام،والصيد يحلو في مثل هذا الوقت.

في الموعد المحدد تحرك خمسة ضباط قاصدين دنشواي :

الميجور باين كوفن.
الكابتن(النقيب) بول
الكابتن بوستوك (طبيب الدورية) .
الملازم بورتر .
الملازم سميثك.

وصاحبهم في الرحلة رجلان مصريان :

الأمباشى زقزوق.
الترجمان عبد العال صقر.

وصل الركب إلي دنشواي الساعة الثانية ظهراً، ووزع الضباط أنفسهم علي خمسة مواضع للصيد.
ويروى الدكتور محمد جمال الدين المسدي القصة في كتابه" دنشواي" كالآتي :
"...إن طلقات الضباط وهم يصيدون الحمام بجوار جرن محمد عبد النبي ، هي التي أشعلت النار في الجرن، فأسرع الأهالي لمساعدته في إطفائها .بعد أن تم لهم ذلك اتجه محمد عبد النبي وزوجته وبعض الأهالي إلي الضباط ،وبخاصة بورتر الذي كان يصيد بجوار الجرن ، وحاولوا انتزاع البنادق منهم كما بدأوا يضربونهم؟، حينئذ أطلق الضباط الآخرون النار علي الأهالي ، فأصيبت أم محمد وشيخ الخفراء وأحد الخفراء وعلي الدبشة.
زاد هذا من ثورة الأهالي فشددوا الهجوم علي الضباط، وجروا خلفهم ، وأوسعوهم ضرباً بالعصي وقذفاً بالطوب ..وأخيراً تمكن الخفراء من ردهم عن الضباط"
ولم تنته القصة علي هذا النحو فقد كان هناك ملحق لها في قرية سرسنا تمكن رجلان من مجموعة الضباط من الجري تجاه المعسكر ،هما : بول وبوستوك .

وسقط بول متعباً عند سوق قرية سرسنا ، فأشفق عليه الأهالي، وأخذوه إلي مكان بعيد عن الشمس ، وقدموا له الماء ،وبينما هم علي هذا الحال جاءت الدورية التي سمعت الأنباء فاتجهت مسرعة لتدرك رجالها في دنشواي .حين رأي أهالي سرسنا الدورية ولوا مدبرين، فأسرعت الدورية خلفهم تطاردهم. ودخل أحد الأهالي الفارين إلي حفرة داخل وابور للطحين، فانهال عليه الجنود بالسونكي وكعوب البنادق حتي هشموا رأسه تهشيماً. ونقلوا بول إلي المعسكر ،وفي المساء فاضت روحه.
لم يعتذر الإنجليز لأهالي دنشواي عن قمحهم الذي أحرقوه ،ولا عن الناس الذين أصيبوا ..
لم يعتذروا الأهالي سرسنا الذين أحسنوا لجنديهم المصاب فكان جزاؤهم قتل واحد منهم...
بدلاً من الاعتذار قرروا عقاب المجني عليهم .. ولجأوا بالطبع للمحكمة المخصوصة التي هاجمها مصطفي كامل عام ١٨٩٥ حين صدر بها قانون . وتشكلت المحكمة برئاسة بطرس باشا غالي ناظر الخارجية، بصفته قائماً بأعمال ناظر الداخلية، وضمت في عضويتها :
- وليام جودينو هيتر القائم بأعمال المستشار القضائي.
- بوند نائب رئيس محكمة الاستئناف الأهلية
- الكولونيل:لادلو القائم بأعمال القضاء والمحاماة في جيش الاحتلال
- أحمد بك فتحي زغلول رئيس محكمة القاهرة الابتدائية الأهلية
وقام بأعمال السكرتارية: عثمان بك مرتضي.
ومثَّل الادعاء : إبراهيم بك الهلباوي.
هاجت المشاعر في مصر.أحس الناس بالإهانة .وتطوع المحامون للدفاع عن الأهالي .وحفظ لنا التاريخ أسماء هؤلاء المحامين:
- أحمد لطفي السيد بك.
- محمد يوسف بك .
- إسماعيل عاصم بك.
وانعقدت المحكمة يوم الأحد ٢٤ يونيو ١٩٠٦ وانتهت من أعمالها يوم ٢٧ يونيو ، وأصدرت الأحكام التالية:
-الإعدام شنقاً لكل من :
حسن علي محفوظ.
يوسف حسين سليم.
السيد عيسى سالم .
محمد درويش زهران.
- الأشغال الشاقة المؤبدة لكل من:

محمد عبد النبي .
أحمد عبد العال محفوظ.
- **الأشغال الشاقة١٥ عاماً:**
علي أحمد محمد السيسي.
- **الأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات لكل من:**
محمد علي سمك.
عبده البقلى.
علي علي شعلان.
محمد مصطفي محفوظ.
رسلان السيد علي.
العيسوي محمد محفوظ.
الحبس لمدة عام مع الشغل وخمسين جلدة لكل من:
حسن إسماعيل السيسي.
إبراهيم حسنين السيسي.
محمد الغباشي السيد علي.
خمسون جلدة لكل من:
السيد العوفي .
عزب عمر محفوظ
السيد سليمان خيرالله.
عبد الهادي حسن شاهين.
محمد أحمد السيسى.
وتنفذ أحكام الشنق والجلد في دنشواي أمام الأهالي لإرهابهم وإرهاب كل من يفكر في المساس برجل إنجليزي مهما ظلم أواعتدى.

كانت الأحكام شديدة القسوة،صارخة الظلم. وكتب قاسم أمين عن يوم صدورها قائلاً:
"رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً، وزوراً مخنوقاً،ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات . كان الحزن علي جميع الوجوه،حزن ساكن مستسلم للقوة ،مختلط بشئ من الدهشة والذهول.تري الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة،منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت،كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة، لكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوماً في النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه ،فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان ".
أما شاعر النيل العظيم حافظ إبراهيم فكتب قصيدة تقطر ألماً، قال فيها يخاطب الإنجليز:

خفضوا جيشكم وناموا هنيئا	**وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا**
وإذا أعوزتكم ذات طوقٍ	**بين تلك الرُبا فصيدوا العبادا**
إنما نحن والحمام سواء	**لم تغادر أطواقنا الأجيادا**
جاء جُهَّالنا بأمر وجئتم	**ضعف ضعفيه قوةً واشتدادا**
ليت شعري أتلك محكمة التفتيش	**عادت أم عهد نيرون عادا**
كيف يحلو من القوي التشفي	**من ضعيف ألقي إليه القيادا**

حين وصلت الأنباء لمصطفي في باريس ترك سرير المرض ، نفض عن نفسه الرغبة في العلاج والاستشفاء،وامتشق قلمه وكتب مقالاً تاريخياً لصحيفة "الفيجارو"، أشهر الصحف الفرنسية، وجعل عنوانه:" إلي الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن"،فكان المقال فضيحة للإنجليز ولم ينحصر

المقال في فرنسا ، بل تجاوزها إلي جميع بلدان أوروبا ،ورغم هذا لم يكتف مصطفي كامل بما فعل ،بل شد الرحال إلي لندن ليقارع الخصوم الحجة بالحجة علي أرضهم.
وقدم مصطفي للصحف الإنجليزية مقاله " إلي الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن "فتلقفته ،وأعادت نشره فأثار المقال نفوس الإنجليز علي ما يفعله كرومر ورجاله في مصر.
ولم يضيع مصطفي كامل وقته ، بل اتصل برجل من أخلص أصدقاء مصر، وهو: ولفرد بلنت ، وشرح له الأمر ، فكتب ، وأقنع الكاتب المسرحي ذائع الصيت برنارد شو فكتب هو الآخر .
كما اتصل مصطفي بالنواب الأيرلنديين في مجلس العموم،وكسبهم إلي صفه ، خصوصاً وهم مثل المصريين يريدون التحرر من الحكم الإنجليزي.
وأجري معه صحفي من جريدة "الديلي كرونيكل" حواراً نشر في ٢٠ يوليو، ثم ألقي خطاباً في حفل أقامته لتكريمه جمعية الجامعة الإسلامية في لندن ،وخطاباً ثانياً في حفل آخر أقامته لأعضاء البرلمان والصحفيين الإنجليز، وهكذا حول مصطفي كامل الأمر إلي حملة ضد كرومر وسياسته في مصر. انتهت بإقالته من منصبه بعد حوالي ربع قرن من سيطرته الكاملة علي جميع شؤون مصر.

الفصل الثامن

هدايا الرحيل

(١)

من الاتهامات التي كان المستعمر يوجهها لمصر أن أهلها متخلفون،لم يتعلموا، ولا يمكنهم أن يحكموا أنفسهم ،ولا يمكن لحكامهم من الأجانب أن يمنحوهم دستوراً وحياة نيابية مثل دول أوروبا لأن هذا يحتاج إلي شعب متقدم،والشعب المصري لم يتقدم بعد.
في مواجهة هذا كان ثمة تيار يري أن التطور والتقدم في مصر لا يقومان إلا علي التعليم،وقد بدأ هذا التيار علي يد علي مبارك قبل الاحتلال ،ثم استمر بعده. وحين عمد المستعمر إلي تخفيض ميزانية التعليم قاوم المصريون باللجوء للتعليم الأهلي ، وأنشأوا الجمعيات التي تبني المدارس وتهدف لنشر التعليم،وكان محمد عبده صاحب الدور الأكبر في هذا المضمار.وبعده دخل مصطفي كامل،وقد رأيناه من قبل يفتح المدرسة التي بناها محبوه وسموها باسمه.والحقيقة أن هذه المدرسة لم تكن الوحيدة التي افتتحها وشجعها زعيمنا .فقد سار في التيار العام الداعي لنشر التعليم
وفي عام ١٩٠٤ بدأ مصطفي كامل يفكر في شيء جديد،لماذا لا تنشئ مصر جامعة مثل الجامعات الأوروبية ،لتشارك في بناء الإنسان المصري ؟ وكتب في "اللواء"في أكتوبر من ١٩٠٤ يدعو لإنشاء كلية،وطلب من الأمة أن تساهم في إنشائها لأنه كان يعلم أن الحكومة واللورد كرومر لن يسمحا بدفع مليم واحد لهذا الغرض. وفي يناير١٩٠٥كرر الدعوة ،بمناسبة العيد المئوي لتولي محمد علي مقاليد مصر ،واقترح أن تسمي الكلية باسم محمد علي .وبدأ الاكتتاب الشعبي ،ووصلت التبرعات إلي ثمانية آلاف جنيه ،وهو رقم هائل بمعني الكلمة في ذاك العصر.
في هذه الأثناء سعي محمد عبده لإنشاء الجامعة من طريق آخر،إذ أقنع أحد كبار الأثرياء وهو أحمد باشا المنشاوي بأن يتبنى المشروع ويتحمل تكاليفه كاملة،واقتنع الرجل،وقرر أن يخصص وقفاً للإنفاق علي الجامعة،وطلب من الحكومة أن تبيعه عشرة آلاف فدان لتنفق الجامعة علي نفسها من ريعها .ووافقت الحكومة،لولا أن يد المنون اختطفت المنشاوى باشا فانتهي المشروع.
رحل محمد عبده عن دنيانا ١٩٠٥ لكن الفكرة التي أطلقها مصطفي كامل لم تنته،إذ تقدم سعد زغلول ليقود المسيرة ،وانضم إليه قاسم أمين،وتشكلت لجنة من ٢٧ عضواً،عقدت اجتماعها ببيت سعد زغلول في أكتوبر ١٩٠٦.
أسفر الاجتماع عن انتخاب سعد زغلول وكيلاً للجنة ،علي أساس أن يتولى أحد أمراء الأسرة العلوية منصب الرئيس، كما أسفر عن انتخاب قاسم أمين سكرتيراً.وتم الاتفاق بين المجتمعين علي أن يسمى المشروع بـ"الجامعة المصرية"،وللمرة الثانية فُتح باب الاكتتاب أمام أبناء الأمة .
بعد قليل صار سعد زغلول وزيراً للمعارف،وتنحى عن المنصب،فحمل قاسم أمين المسؤولية،وتولى الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) رئاسة اللجنة ، وسار العمل حثيثاً حتى ظهرت الجامعة إلي الوجود بعد رحيل مصطفي كامل.
إن الجامعة المصرية مدينة بفكرتها للزعيم مصطفي كامل ، ورغم أنه لم يلعب دوراً في تنفيذها،فإنها في النهاية مدينة له بدين عظيم،لأن الجامعة قبل أن تكون مباني ومناهج هي فكرة ولصاحب الفكرة الفضل والتقدير.
إن الجامعة هي إحدى هدايا الزعيم قبل رحيله لبلاده،لمصر.

(٢)

لم تكن الجامعة هي الهدية الوحيدة التي قدمها مصطفي كامل لبلاده قبل الرحيل،فقد قدم لها هدية أخري لا تنسى ،إذ نقل العمل السياسي فيها من النظام القائم علي الحكم الفردي إلي النظام القائم علي تعدد الأحزاب.وبادر مصطفي كامل بإنشاء أول حزب علني في تاريخ مصر،وهو الحزب الوطني.
ولهذا الحزب قصة سنرويها...

وصلت العلاقة بين مصطفي وعباس عام ١٩٠٤ إلي حد القطيعة ، وراح ينتقد الخديو بشكل علني،خصوصاً حين وقف الخديو تحت العلم البريطاني يستعرض الجيش البريطاني ، واستمرت القطيعة من هذا الوقت حتى وقوع حادث دنشواى .
بعد حادث دنشواى اتصل الشابان ببعضهما . نسق كل منهما مع الآخر ،وكان لعباس رجاله في إنجلترا،الذين ساهموا مع مصطفي كامل في صياغة الرأي العام الإنجليزي ضد كرومر .
حين عاد مصطفي كامل إلي مصر سعي صديق مشترك له وللخديو للجمع بين الصديقين القديمين فالتقيا،وحضر اللقاء معهما محمد فريد ، ولطيف باشا سليم،وفي هذا الاجتماع اتفق الطرفان علي أمرين مهمين:

الأول : إنشاء الحزب الوطني .

الثاني : إصدار جريدتي "الإجبشيان ستاندرد" باللغة الإنجليزية ، " وليتاندارإيجيبسيان " باللغة الفرنسية ، لشرح وجهة النظر المصرية للأوروبيين .

وساهم الخديو في تمويل الجريدتين ، ودفع الأثرياء للمساهمة في التمويل فتكونت شركة تولت إصدار الصحيفتين ، وبدأ مصطفى العمل لإنشاء الحزب ..
كتب أولاً في اللواء في ١٠ أكتوبر ١٩٠٧ يقول :

" لما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطني نظام تام يجمع كل رجاله وأنصاره ومحبيه الذين أمضوا السنوات وهم مشاركون لنا في العمل بكل أنواع المشاركة " .

ثم ألقى خطبة كبرى بمسرح زيزينيا بالإسكندرية للإعلان عن الحزب والدعوة للانضمام إليه في ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ .
وفي ٢٧ ديسمبر من العام نفسه عقد أول جمعية عمومية للحزب ..
ها هي الجموع تتزاحم في دار اللواء ، جاء الجميع لتلبية نداء الزعيم ، وها هو الزعيم يأتي في البالطو الثقيل ، يصعد إلى المنصة ، على وجهه يبدو المرض ، في عينيه يبدو الإرهاق ، لكن إرادته تقهر كل شيء .
صمت الجميع في انتظار خطبة الزعيم . وبدأ الزعيم هادئاً ، بصوت خفيض ، ثم علا الصوت ، ثم انطلق كأن صاحبه لا يعرف المرض ولا ينهش السل رئتيه ، وتدفقت المعاني شلالاً ، وتألقت المعاني درراً :

" إننا إذ دعونا الناس للدخول في هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ، باسم كرامة الإنسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم " .

دوَّي المكان بالتصفيق ، بالهتاف ، وصعد من بين الناس رجل من الوطنيين المتحمسين فألقى كلمة بين فيها أعمال الزعيم من أجل مصر . وانتخب الجميع الرجل الذي عبر عن حبهم لوطنهم رئيساً لأول حزب وطني علني في مصر .

الفصل التاسع

الرحيل

(١)

لم تكن صحة الزعيم تسمح بكل هذا الجهد الذي بذله في الإعداد للحزب ، ولا بمثل هذه الخطبة العصماء ، لكن الزعيم يتحدى بإرادته الحديدية ضعف جسده والمرض الذي ينهش صدره .
ووصلت المعركة بين الإرادة والجسد مداها ، فقرر الجسد أن يحسم الأمر .
بعد الخطاب الرائع خرج الزعيم مستنداً على أيدي رفاقه ، وبعدها لم يستطع أن يغادر الفراش ، ووضح أن المرض قد قال كلمته .
صارت حياة مصطفى صعبة . السعال لا يفارقه ، الصدر شلال من الدم يقذف كل حين موجات لا تتوقف ، والألم .. آه من الألم ، آه لو يتوقف لحظة ، آه لو يرحم رجلاً تتمنى مصر له أن يحيا ألف عام. آه لو يعرف الحياء !!
الأيام تمر قاسية ، ومع الشتاء ازداد الألم ، ومر يناير عصيباً ، ثم جاء فبراير يسير متأنياً ببرده القارس ، لا .. لا .. ما عاد الألم محتملاً ، الموت أحياناً يكون أرحم من العذاب . رباه رحمتك بعبدك الضعيف مصطفى كامل ... رباه رحمتك .
لم تتأخر رحمة الرحمن .. جاءت في الوقت الذي شاء لها الخالق أن تأتي فيه . وصعدت الروح إلى بارئها في العاشر من فبراير ١٩٠٨ .

(٢)

يقدر الرافعي عدد المشيعين للزعيم بربع مليون إنسان .. وهو رقم مذهل بالنسبة لتعداد سكان القاهرة في ذاك الوقت ، بل تعداد مصر . لكن أهم ما في هذه الجنازة هم هؤلاء الرجال الفلاحون بجلابيبهم الريفية ، إنهم أهل دنشواي ، جاءوا ليحملوا الزعيم على الأكتاف كما حمل قضيتهم ذات يوم على رأسه ..
إلى جنة الخلد يا مصطفى ...
إلى جنة الخلد يا ابن مصر العظيم .